طبيعة العقل المحض

للمفكر الفلسطيني

ف . ح . حجر



طبيعة العقل المحض

للمفكر الفلسطيني
ف . ح . حجر

موضوعات الكتاب

اهـــداء

الفصــل الأول : نقد الفلسفة التقليدية :

(أ) نقد الفلســفة التجريبية : الادراك (لا حفـظ بلا وعى ــ تداع زائف لا ادراك من خلال الاحساس المدرك ــ تصادم التصورات ــ تناقض الفكر التجريبى فى تفسيره للادراك ــ اختلاط ادراك الاحساس مع ادراكنا لفكرته ــ لا تصور او ادراك حسي ــ لا وجود لكيف متمايز) .

الخيال : (نشاط عقلى بلا مدركات حسية ــ ضرورة حضور التصوير الخيالى قبل تصويره ــ تصورات تربطها تصورات ــ) .

الذاكرة : (ذكرياتنا ليست هى هى بعينها ــ اختزان الخبرات يعطل الادراك ــ) .

الوعى : (ادراكنا ليس حالة من الوعى فى معزل عن العقل المفكر ــ سوف نقع فى حيرة التصور ــ عديد من المدركات فى حالة وعى بعينها) .

العقــل : (تفكير من خلال الاحساس الخارجى لا الاحساس المدرك ــ ياخذ نشاطنا العقلى طابع الذكريات ــ تعذر الاستنتاج النظرى) .

(ب) نقد الفلسفة العقلية :

الادراك : (أفكارنا ليسـت ذات وجود محدد داخـل العقل ــ ندرك فى معزل عن الفكرة ــ لا وجود للفكرة الا حالما نكن على وعى لها ــ وعى شامل لجميع افكارنا ــ امتناع النشاط العقلى ــ ندرك الفـكرة مفتتة ــ سوف يحتجب عنا العالم الخارجى) .

الخيال : (عجز عن تفسير التصورات الدهنية ــ لا وجود لفكر خراق يعتمد عليه تصويرنا الخيالى) .

العقل : (ادراك باجتماع ملكتين معا ــ امتناع النشاط العقلى) .

نقد ديكارت : وجود المعانى الفطرية وعدم وجودها سواء ــ نتائج غريبة فى ميادين الميتافيزيقا والاخلاق ــ علم سابق بقدرتنا على الادراك ــ تصور موجودات مختلفة عما هو موجود ــ لسنا بحاجة لمعانى أخرى غير تلك التى فطرنا عليها ــ مدركات بلا ادراك) .

(جـ) نقد كانط : (لا ندرك تصـويرنا الحسى ــ احســاسات فى وعينا بلا ادراك ــ نرى الواقع بغير ما تراه حواسنا ــ لن نقدر على التصور فى معزل عن التجربة ــ تعدد مقولات الادراك يمنع الادراك ــ سوف يختل ادراكنا ــ

نظرية متناقضة ــ وضعين للاحساس داخل الذاكرة ــ ذكريات غير معقولة ــ عقل آخر الى جانب العقل) .

الفصل الثانى : رفض ملكات العقل التقليدية :

(أ) رفض الذاكرة : مصـــدر الاعتقاد بالذاكرة (هيوم ــ برغسون ــ الفلسفة المـــادية) ــ امتناع التذكر والادراك معا ــ امتناع النشاط العقلى ــ نقد برغسون ــ امتنا النشاط الخيالى ــ لا اختزان حسى .. فلا ذاكرة .

(ب) رفض المخيلة : تصويراتنا الخيالية ليست حسية فى طبيعتها ــ تعارض نشاطنا الخيالى مع طبيعة نشـــاطنا العقلى ــ الخيال لا ينهض على التصورات الذهنية ــ لا نستطيع فصـــل الجوانب الخيالية فى تصـــوراتنا العقلية ــ يصبح تصويرنا الخيالى لا شعوريا .

(جـ) رفض ملكة الفـكر : افكارنا خيالات صرفة ــ امتناع الفكر بدون تصورات ذهنية ــ سوف يتعذر الفكر نفسه .

(د) رفض فكرة الشعور : شعور آخر الى جانب الشـــعور ــ يصبح نشاطنا العقلى مجهولا ــ تعقل بلا شعور .

الفصل الثالث : طبيعة العقل المحض ... (الخلق من العدم) .

الفكر : (المثاليون الألمـــان ــ ديكارت ــ الفكرة .. من العدم) .

التصورات الذهنية : (الفكر التجريبى ــ الميتافيزيقا ــ تصورات ... من العدم) .

المخيلة جوهر العقل : (ذكرياتنـــا خيالات صرفة ــ افكارنا خيـــالات صرفة ــ خيالنا مطلق) .

الارادة والعقل :

العقل منبىء بذاته : (لا نحلم بخبراتنا المـــاضية ــ لا وجود لوظائف عقلية مجهولة ــ العقل منبىء بذاته) .

اهـــداء

رجل لم تعودوا تذكروه ... ولعلكم لم تذكروه مطلقا ، خصوصـــا في مثل هذه الظروف السياسية المؤلمة التي تعصف بأمتي ...

ذاك الرجل الذي اقاموا مجدهم الخرافي على أشلائه لقد قاتل داود قتالا اسطوريا حتى ســـقط دون أن يحفل به أحـــد مطويا تحت ثرى ارضنا الطيبة .

كان قربانا دمويا راق لهم أن يقدموه لالههم الذين زعموا ان اعــذب القرابين لديه هي تلك الضحايا البشرية التي تذبح وفــق مراسيم مفرطة في التوحش جعلوا من بطلنا القتيل مزمورا تتغنى به أسلافهم .

سنظل نقاتلهم ونقـــاتل داود حتى تتحرر حبيبتنا منهم ، وننتقم لبطلنا القومي « جوليات » الذي سرتني شجاعته فأهديته هذا الكتاب...
الم تعودوا تذكروه ؟..

المقدمة

هذا الكتاب ... محاولة فلسفية منى توغلت فيها الى مدى بعيد في عقلنا الانسانى لكشف عن قناعه المحير ، محاولة هى فى تقديرى فريدة .. اذ لم التزم فيها بشىء من تراث البشرية الفلسفى كما جرت التقاليد الفلسفية حيث لم أحذو حذو احد ، ولم أفد من احد ، كانت فلسفة ذات مجهود ذاتى صرف .

ولقد راودنى وضعها فى العشرينات من عمرى ، لكنى لم اتجه لوضعها بالفعل الا مع مطلع الثلاثينات ، نتيجة للظروف السياسية المريرة التى عصفت بالشعب الفلسطينى ... فلسفة هى مجموعة مترابطة من الأفكار كتبتها فى مجموعة كبيرة من قصاصات الورق خلال عام تقريبا ... فى الشارع ... فى المقهى ... فى النادى ... فى فصول المرحلة الابتدائية ... فى حجرة النوم ... فى المطبخ ... الخ ، ولقد اعدت تجميع هذه الأوراق وتنظيمها وكتابتها على النحو الموجود فى هذا الكتاب .

والحق أن ثمة مجموعة من الدواعى حملتنى على الكتابة التى أثمرت هذه الفلسفة ، منها ماهو شخصى وآخر قومى وثالث انسانى .

والأول منه ماتعلق بطبيعتى العقلية أعنى ميلى الفطرى الشاذ الى التفكير المجرد والشرود الدائم ... اذ لم اكن انفك على التفكير المضنى العذب وحيث لم أكن اكف عن التساؤل والذهول ، والى الحد الذى كنت أصور نفسى فيه بأننى لست مثل هؤلاء وأولئك ... أو لعلى مدفوع الى التفكير والتأمل من تسلط مصادر مجهولة لا أجد للاحاطة بها سبيلا ..

ومنه ما تعلق بطبيعتى الوجدانية ، فلقد كنت أعيش فترات موصولة من القلق والتوتر العصبى تثير الاعياء خصوصا كلما ابتعدت عن شرودى وانطوائى هكذا وكان الشرود والانطواء هما المناخ الذى قدر لى أن أعيش فيه لكى لا أكف عن التأمل والتفكير ، وعلى الجملة فقد راعنى اننى مهيأ فطريا للفكر ... أكاد أقول لجنون الفكر .

والثانى هو ماتعلق بالدور الذى أسهم فيه العرب فى الثقافة البشرية، اذ طالما رشقنا الآخرون وما لبثوا يرشقوننا بتهم التخلف العقلى ، ولقد أوغلوا فى الرشق حتى أصابونا بالتوحش ، ونحن ان كانت حجتنا أن كانت لنا حضارة وكان ثمة مفكرون وأبحاثا علمية ، قيل وما دهاكم حتى تكفون.

والثالث هو ماتعلق بالمعتقدات الانسانية فأنا قد اغفر لها انها باطلة اذ ربما كانت طريفة ولكنى لن اغفر لها انها بلغت حد السخف والتزمت.. اننا نلوم المرء لخطئه ، لكننا نزدريه لغبائه وسخفه ، ويالها من حماقة حين

تصل القناعة السخيفة الى حد التزمت .

أما عن موضوعات هذا الكتاب فقد نظمتها فى ثلاثة فصول .

الأول : تناولت فيه نقد الفلسفات التقليـدية التى تعرضت للبحث فى العقل الانسانى وهى الفلسفات التجريبية والعقلية ، مع تخصيص نقـد كبار الفلاسفة فى هذا الصدد وهم الفيلسوف الانجليزى ديفيد هيـــوم والفيلسوف الفرنسى ديكارت ثم الفيلسوف الألمانى كانط .

والثانى : ارفض فيه ملكات العقل المزعومة وهى ملكات التصـــور والذاكرة والمخيلة والتفكير .

والثالث : أبسط فيه فلسفتى فى طبيعة العقل البشرى ، وحديثى عن المخيلة ـ بغير معناها المألوف ـ كجوهرا لروحنا العاقل ثم موقفى من الارادة البشرية وأخيرا عرضى لفكرة الروح المنبىء .

الفصل الأول

نقد الفلسفة التقليدية

الفلسفة التجريبيـة

يرى انصار هذه الفلسفة على اختلافهم بأن المعرفة الانسانية بأكملها تخضع للتجربة الحسية بمعنى ان الانسان لايكاد يعرف شيئا عن هـذا العالم الخارجى المحسوس دون أن يتصل به عن طريق حواسه اتصـــالا مباشرا فهو لكى يدرك شيئا من الأشياء ينبغى أن تقع حواسه عليه وبالتالى فان حواسه ستنقل الى دماغه صورة الشيء الخارجى الذى وقع عليـــه الاحساس . فنحن لا نعرف الاشياء دون أن تنطبع صورها فى أذهاننا كما تنقلها لنا حواسنا .

فالادراك الانسانى عند التجريبيين لايخرج عن ان يكون مجموعة من الاحساسات أو الانطباعات التى تنقلها لنا حواسنا من العـــالم الخارجى والذهن الانسانى يغدو فى هذه الحالة وكما صوره الفيلسوف الانجليزى ديفيد هيوم أشبه بصفحة بيضاء تنقش فيهـا جميع تجاربنا الحســـية ومعارفنا فى عالم الأشياء الخارجية .

وفلسفة التجريبيين عموما وهيوم خصوصا هى فلسفة لتفســـير ادراكنا العقلى وليست لطبيعة العقل البشرى التى أتوخاها انا فى كتـابى هذا فالادراك هو ظاهرة من ظواهر العقل ، وعليه ، فان البحث فيـــه ليس بحثا للعقل بأسره وانما لظاهرة من ظواهره .

والحقيقة اننى لم أجد فى التاريخ الفلسفى بأسره فلسفة واحـــدة تتحدث عن العقل بكامله وانما ابحاثا تتناول بعض ظواهره فحسب ولذلك كان على ان أتصدى للنظر فى جميع الاتجاهات التى تناولت هذه الظواهر وخصوصا ظاهرة الادراك ومن بين هـــذه الاتجاهات الاتجـاه التجريبى المذكور .

وينبغى أن أشير منذ البداية الى أن وضع فلسفة لتفســير ادراكنا العقلى يجب ان يتوافق مع تفسير بقية ظواهر العقل الأخرى وهى ظواهر التذكر والتخيل والتفكير لأن الادراك ظاهرة عقلية كغيره من هذه الظواهر

المذكورة ومن ثم فينبغى أن يستقيم تفسير هذه الظاهرة مع تفسير تلك الظواهر الاخرى فالادراك ليس ظاهرة مستقلة فى معزل عن ظواهر العقل وانما هو الى جانبها ظواهر لعقل واحد وحيث لايعقل ان تتقاسم تفسير حياتنا العقلية مجموعة من الاتجاهات المتضاربة ، وانا هنا لا ألزم اتجاها فلسفيا بعينه بل جميع الاتجاهات التى بحثت فى ظاهرة من ظواهر العقل سواء أخذت طابعا تجريبيا ام عقليا أم غير ذلك .

وثمة ملاحظة اخرى جديرة بالاشارة هى : اننى وجدت غلوا كبيرا ان لم يكن شططا من جانب معظم المفكرين على اختلاف اتجاهاتهم حين أقاموا نظرياتهم لظواهر العقل البشرى على مقدمات أو فروض فلسفية عقيمة ... لقد جاءوا واحدا فى اثر الآخر ليقيموا تقليدا فلسفيا زائفا، ثم غدا منهجا مهلهلا أصاب جميع الأبحاث الايستمولوجية بالعقم والضحالة ... أن قضية واحدة بعينها عند الفلاسفة التجريبيين أو العقليين تفسر لنا جميع ظواهر عقلنا الانسانى دفعة واحدة . فالادراك الانسانى فى طبيعته عند هؤلاء وأولئك اما احساسا خالصا أو فكرة عقلية مجردة . ولكى نبحث فى طبيعة ادراكنا فينبغى أن نبحث فى طبيعة هذا الاحساس أو تلك الفكرة. وفى كلتا الحالتين يغدو عقلنا ذا محتوى لحصر من الانطباعات الحسية أو لحشد من الأفكار المجردة .

ولسوف أستهل نقدى للفلسفة التقليدية بأثرها فأبدأ بنقد الفلسفة التجريبية .

نقد الفلسفة التجريبية

الادراك

الادراك الانسانى من خلال الفكر التجريبى سوف يكون ممتنعا من عديد من الوجوه وهذا ماسوف أوضحه فيما يلى :

لا حفظ بلا وعى ...

ان كان ادراكنا حسيا فى طبيعته .. أن كان ادراكنا للاشياء الخارجية يأخذ فى وعينا طابع الاحساس الصرف أو اثرا له لكنا على حالة وعى دائم وشامل لجميع خبراتنا ومدركاتنا الحسية بالضرورة .. فوجود الاحساس أو أثره فى وعينا وجود لفكرته المدركة ... وجود للادراك ، لأن الاحساس هو عين الفكرة العقلية عند الفلاسفة التجريبيين وبغياب هذا الاحساس أو أثره عن وعينا غياب لفكرته المدركة ... غياب للادراك ، وعليه ، فان

الذاكرة — وهى التى تحتشد فيها جميع خبراتنا الحسية ومدركاتنا — ينبغى ان تتيح لنا أن نكون على حالة وعى دائم وشامل لهـــذه الخبرات الحسية القابعة فيها دفعة واحدة ...اذ لايمكن أن يكون وجود الاحساس فى العقل مدركا فى حال وغير مدرك فى حـــال اخرى . والا لكان ممكنا أن تتواجد فى عقولنا أفكارا بلا ادراك وهذا باطل .. فمثلما نحن ندرك حالما يتمثل لنا موضوع ادراكنا الحسى فى شعورنا فينبغى أن ندرك حالما يتمثل لنا هذا الموضوع الحسى فى ذاكرتنا أيضا . فيكون لنا بالتالى شـــعورا آخر الى جانب شعورنا .. أعنى وعيا لادراكنا الحسى بأسره الى جـانب وعينا المتصل بالتجربة الحسية .. ومن ثم فلم نكن بحاجة لوجود ذاكرة فينا ، اذ مادام ثمة وعى فينا يتسع لجميع خبراتنا ومدركاتنا الحسيةالى جانب وعينا التجريبى فلا نعد بحاجة لحفظها فى الذاكرة ... فلا ذاكرة اذن — وهذا ما لايتفق مع الاتجاه التجريبى نفسه — وكما امتنعت علينـا ذاكرتنا فلسوف يمتنع علينا الادراك لأننا لانستطيع توجيه وعينا للخبرة الماثلة فيه الى جانب توجيهه لاستقبال خبرات جـــديدة بطريق التجربة الحسية المباشرة .

تداع زائف ...

الداكرة — فى الفكر التجريبى —بما فيها من مدركات وخبرات حسية هى التى تيسـر لـــا تصور هـــذه الخبرات والمـدركات واستدعائها الى الشعور . لكن كيف نتمكن من تصور هذه الخبرات واسـتدعائها ؟ يرى الفيلسوف الانجليزىدي فيد هيوم — وهو الذى وضع لنا اكمل صـــورة للمذهب التجريبى — اننا نمارس نشاطاتنا العقلية بتـــداعى أو تعاقب مدركاتنا الحسية وخبراتنا الماضية من الذاكرة وفى اتجاه الشـــعور لما يتوافر بين هذه الخبرات من علاقات تربط بينها كعلاقات التشابه والتجاور والعلية ، ان أى ادراك حسى مباشر الآن كيفل باثارة احساســـات مدركة داخل وعينا شبيهة به او ذات صلة عليه معه فتتعاقب فى اثره فى وعينا. فمدركاتنا تتشابه او تتجاور أو تتعلل فى وعينا مثلما تتجاور مدلولاتها أو تتشابه أو تتعلل فى الخارج .. هذا هو تفسير ديفيـد هيـــوم الذى عم الفلسفات التجريبية بأسرها وعلم النفس الحديث .

ولسوف أوضح فساد هذا التفسير التجريبى على النحو التالى :

ان التصوير التجريبى السابق سوف يمنعنى من توجيه وعيى لادراك شيء خارجي دون ما أثاره فى وعيى من تمثلات حسية شبيهة به أو ترتبط عليا معه ، فاما أن أوجه وعيى للتمثلات الحسية التى أثارها المحســـوس الخارجي فيه فينقطع ادراكى له ، واما أن أوجه وعيى لادراك هـــذا

المحسوس الخارجي فأهمل بذلك ما اثاره فى وعيى من تمثلات بحيث اتمثلها دون ان أدركها ... فلا أعى ماهو ماثل فى وعيى وهذا وهم .

ان من المتعذر على توجيه وعيى لاستقبال معطيات التجربة الحسية المباشرة الى جانب ما اقتضت هذه المعطيات اثارته فى هذا الوعى لاننى لا اقوىعلى مواصلة استقبال معطياتالتجربة الحسية المباشرة بينا شعورى ممتلئا باخرى اثارها الاحساس المباشر نفسه والذى مالبثنا نحاول ادراكه دون أن ندركه بالفعل ... فقد تتداعى جبريا فى شعورى خلال التجربة الحسية انطباعات حسية شبيهة بهذه التى استقبلها الآن ولكى اكون على وعى لها ، ينبغى أن اقطع صلتى بادراكى الحسى المباشر ..وعليه فلسوف أعجز عن الادراك وانا بصدد تجربة حسية تقتضى الادراك وذلك لأنالشعور سوف يكون مشغولا عن ادراك معطيات التجربة المباشرة بتلك الانطباعات الشبيهة التى تعاقبت عليه بمناسبة التجربة الحسية نفسها ، فلكى أواصل ادراكى الحسى المباشر واستقبل معطيات الاحساس الحالى ينبغى أن أهمل ما اثاره فى وعيى من تمثلات ... الا اعى ما تمثل فى وعيى وهذا وهم .

وهكذا يصبح الوعى الانسانى خلال التجربة الحسية صدامًا لضرورتين .. ضرورة ادراك موضوع التجربة الحسية ، وضرورة ادراك الانطباعات الحسية الشبيهة التى تدافعت فى وعينا بفعل ارتباطها بهذا الموضوع . فيتعذر علينا الادراك فى حال يتطلب الادراك بالضرورة .

لا ادراك من خلال الاحساس المدرك ...

المدرك الحسى لايمكننا من ادراك مدلوله الخارجى حالما تقعحواسنا عليه فالاحساس المدرك محدد الكيف والكم فى وعينا ومن ثم فهو لاشك مختلف عن مدلوله الحسى الخارجى المتغير فى كيفه وكمه . وعليه فلسوف يصبح الاحساس المدرك من حيث هو فكرة بلا مدلول خارجى . لأن هذا الأخير قد اختلف ــ فى تغيره ــ عن ادراكنا الحسى له فعاد بلا أدراك .. اذ لم يعد ادراكنا السابق له يدل عليه وسوف يصبح ادراكنا له بالتالى بلا مدلول لأنه لم يعد يتواجد فى الخارج كما أدركناه .. وهكذا يصبح ادراكنا بلا مدلول خارجى .ويصبح المدلول الخارجى بلا ادراكوهذا وهم.

ولو قمنا بتصوير الشىء الخارجى من جديد تصويرا حسيا حتى نتمكن من تكوين فكرة صحيحة له بدلا من ذات التصوير السابق الذى لم يعد يدل عليه لأصبح ادراكنا الحسى بغير ذى جدوى فىالادراك الانسانى. لأنه سوف لايساعدنا على فهم الأشياء الخارجية المحسوسة الا حين احساسها فقط ، اما فى غياب هذا الاحساس فسوف يصبح وجوده فى

وعينا فكرة بلا مدلول خارجى ،لأن هذا المدلول الخارجى لن يظل فى نفس الحال السابقة التى ادركناه عليها فيعود بالتالى غير مدرك فى ذهننـــا .. وهــذا وهم .

تصادم التصورات ...

اننى أدرك هذه السيارة وتلك السيارة واشـكال اخرى عديدة من السيارات ، فان كنت اختزنها جميعها فى ذاكرتى لكان مجرد احساسى او تصورى لواحدة منها كفيلا باندفاع جميع الصور الأخرى الشبيهة والمختزنة فى الذاكرة الى شعورى .. فهى جميعا تشـترك فى نفس المعنى المدرك وتتشابه فى معطياتها الحسية . واندفاع جميع هذه المعطيات الحســية المتشابهة فى حال شعورى بعينه سوف يعطل الادراك . اذ سوف تتصادم التصورات الحسية المتعاقبة على الشعور ويلتبس علينـــا الادراك . ان ادراكنا لاحساس ما خارجى سوف يثير فينا احساسات اخرى شــبيهة قابعة فى الذاكرة .. اثارة تؤدى الى تدافعها الى الشعور ، فيجتمع لدينا كل مالدينا من خبرات حسية ذات تشابه مع الاحســاس الماثل فى الوعى مما يؤدى الى تعطيل الادراك ونحن لانستطيع ان نوزع وعينــا بين جميع هذه الاحســاسات الماثلة فيه فندركها جميعا بالتالى فى حالة من الوعى بعينها لاننا سندرك فى هذه الحالة عديدا من الأفكار فى حــل بعينه .. وهــذا ما لانقوى عليه فى الحقيقة .. أعنى لانقوى على ادراك عدة افكار فى حالة من الوعى بعينها .

ونحن اذا قمنا بتوجيه وعينا لاحساس ما من هذه الاحساسات الماثلة فيه دون غيرها . فلسوف نفقد وعينا للباقى .. اذ سوف تتبـــدد هذه الاحساسات من وعينا وتتلاشى ، وهى ان لم تتلاشى فسوف تظل فى وعينا بلا ادراك الى جانب الاحساس الذى اتجه اليه الوعى ــ الاحساس موضوع الادراك ــ وعليه فلسوف يكون فى مقدورنا ان ندرك احساسا ما ماثلا فى وعينا بينما توجد الى جانبه احساسات اخرى بلا ادراك .. ســـوف تتواجد فى وعينا احساسات دون أن ندركها وهذا وهم واضح .

تناقض الفكر التجريبى فى تفسيره للادراك :

كيفيات الاشياء وكمياتها هى موضوعات حواسنا والاحساس بالتالى هو كيف أو كم خالص أو هو من كلاهما معا .. لكن حواسنا لاتنقل لنــا كيفيات الاشياء وكمياتها من جميع جوانبها وانما تنقل لنا الجانب المنظور منها فحسب . وقد لاتنقله بكامله .. اذ ربما تضمن تفاصيل دقيقة يصعب علينا تحديدها فى وعينا كأن ننظر لشجرة من الاشجار فيصعب علينا ان

نحصل على انطباع حسى دقيق لكامل تفاصيلها بما فيها من ازهان واوراق وفروع فتصويرنا الحسى لايقوى على ما تقوى عليه الكاميرا الفوتوغرافية ، فانطباعنا الحسى ليس بمثل تلك الدقة للصورة الفوتوغرافية ... انطباعنا الحسى ليس صورة صادقة للمحسوس الخارجى وانما هو تصويرا ناقصا له ... هو محض كيف أو كم ناقص أو نقصا من كلاهما معا .

وهو مضافا الى ذلك زمنى ، اذ يستحيل نقله عن طريق الحواس الى الشعور دفعة واحدة وانما ينبغى نقله الى الشعور متجزئا عبر الزمان فنحن لا نحصل على انطباعاتنا الحسية للأشياء الخارجية حالة وقوع حواسنا عليها دفعة واحدة وانما نستقبلها فى انات زمنية متلاحقة ، فاحساسنا للشىء الخارجى لايأتينا كاملا بمجرد النظرة الخاطفة اليه وانما يأتينا على شكل مجموعة من الاحساسات المتدافعة والموصولة ... فالاحساس اذن هو محض كيف أو كم ناقص أو نقصا من كلاهما معا وهو مضافا الى ذلك زمنى تنقله لناحواسنا متجزئا عبر الزمان .

وحيث ان ادراكنا ذا طبيعة حسية فينبغى ان يأخذ نفس الطابع الذى للاحساس ينبغى لادراكنا ان يكون ذا طابع كيفى كمى ناقص وأن يكون ذا طابع زمنى أيضا .. والملاحظ اولا ان ادراكنا للاشياء الخارجية سيكون ادراكا ناقصا فهو ذا طبيعة حسية والاحساس — كما أوضحت — ليس صورة صادقة لمدلوله الخارجى ومطابقا له ، وعليه فادراكنا الحسى ادراك ناقص لايمثل مدلوله الخارجى فهو يوجد فى وعينا فكرة بلا مدلول خارجى لانها ليست مطابقة لهذا المدلول .. فادراكنا الحسى اذن ادراك ناقص وبلا مدلول خارجى بينما نحن — فى الحقيقة — نتجاوز هذا النقص من خلال تصوراتنا للاشياء الخارجية... من خلال تمثلنا لها فى وعينا نحن نصورها فى وعينا تصويرا يشير لمدلولها الخارجى ونحن لكى نظل على قناعتنا بأن تصويرتنا وتمثلاتنا للاشياء الخارجية ذات طبيعة حسية فينبغى أن تتداخل الى جانب معطياتنا الحسية الناقصة معطيات اخرى تكملها من الذاكرة حتى يبدو ادراكنا الحسى مكتملا وبالتالى كما ندركه فى الحقيقة ... نستكمل النقص الموجود فى احساسنا المدرك باحساسات اخرى مكملة له فيتوافر لنا ادراك الموجود الخارجى على حقيقته ... ادراكا نتجاوز فيه ادراكنا الناقص الذى أملته علينا التجربة الحسية ، وتكملة هذه الاحساسات الناقصة يتم من خلال الذاكرة بالضرورة ففيها تحتشد جميع خبراتنا ومدركاتنا الحسية وبدون هذه التكملة الحسية فسوف لن يكن ادراكنا الحسى اثرا لمدلوله الخارجى المحسوس وانما اثرا ناقصا له فلا يعد يدل عليه بالتالى .. ونحن وان قلنا بهذه التكملة الحسية فان ادراكنا الحسى المباشر من خلال التجربة الخارجية سوف لن يكن لوحده انطباعا صادقا للشىء الخارجى

المحسوس موضوع تجربتنا . وانما يعتمد على مدركات الذاكرة . وعليه فسوف تتداخل مدركات الذاكرة فى كل حالة ادراك حسى مباشر خلافا للمذهب التجريبى .

وما نلاحظه ثانيا انه ينبغى ان يكون فى مقدور وعينا ان يستوعب جميع المعطيات الحسية التى تأتينا على دفعات ومن خلال انات الزمان فى حالة شعورية بعينها حتى ندركها ذات وحدة وذات دلالة خارجية ، فالاحساس الخارجى يأتينا مجزءا على هيئة معطيات حسية مفتتة ومتلاحقة عبرانات الزمن ولكى نستوعبه فى وعينا ونتصوره كاحساس له وجوده الخارجى ينبغى أن نكون قادرين على تجميع معطياته المفتتة داخل وعينا وفى حالة من الوعى بعينها .

وهذا غير ميسور لنا لما يأتى : ـ

ا ـ ان فكرة الذاكرة تقوم على دفع كل انطباع حسى مدرك من خلال التجربة الحسية القائمة دون ابطاء من الشعور وفى اتجاه الذاكرة حتى يفسح المجال لاستقبال انطباعات اخرى ... ففكرة الذاكرة تمنع استبقاء انطباعات حسية فى الوعى انتظارا لغيرها حتى يتيسر لنا بالتالى تصوير احساس ما من مجموعها .

ب ـ اننا لانستطيع الاحتفاظ بمعطيات حسية فى وعينا بينما حواسنا لاتنقطع عن استقبال معطيات اخرى جديدة لان استقبال معطيات حسية جديدة يقتضى تفريغ وعينا مما فيه من مدركات حسية ، فنحن لانستطيع استقبال معطيات حسية خلال التجربة بينما نحن فى نفس الآن نتأمل أخرى ماثلة فى وعينا .

جـ ـ لايمكننا توجيه وعينا نحو عديد من المدركات الحسية الماثلة فيه فى حالة من الوعى بعينها اذ يتعذر على وعينا ان يتوزع بين هذا العديد من المدركات الحسية الماثلة فيه كما يتعذر على هذه المدركات ان تتقاسم وعينا ... فنحن لانستطيع ان نكون على وعى لعديد من الافكار بحضور عديد من الاحساسات فى حالة وعى بعينها .

فالادراك التجريبى يتطلب حضور اكثر من معطى حسى فى حالة من الوعى بعينها وهذا وهم ـ كما اوضحنا ـ لاننا لانستطيع توجيه وعينا لعديد من المعطيات الحسية الماثلة فيه فى حالة بعينها .. ففى حال توجيه وعينا لاحساس واحد من بين هذه الاحساسات الماثلة فيه ، فان الاحساسات الاخرى لاتلبث ان تختفى منه ولو لم تختف فسيكون وجودها فيه بلا فهم

بجانب الاحساس الذى اتجه اليه الوعى ، وعليه فلسوف يستوى وجودها فى وعينا مع عدم وجودها فيه ، وهذا تناقض واضح لاتعد معه احساساتنا مصدر ادراكنا .

اختلاط ادراك الاحساس مع ادراكنا لفكرته :

ان اعتماد ادراكنا على الاحساسات التى تتمثل لنا فى وعينا يؤدى الى الخلط بين ادراكنا لهذه الاحساسات وبين ادراكنا لفكرتها ... خلط بين ادراكنا للاحساس من حيث هو كذلك وبين ادراكنا لفكرته مما يؤدى بالتالى الى ابهام الادراك وتعطيله وبتفصيل آخر انه يؤدى الى اختلاط ادراكنا للاحساس مع ادراكنا لفكرته فوجود الاثر الحسى فى الشعور ينبغى أن يكون مدركا من حيث هو جسم .. من حيث هو محض كيف وكم معلوم ، وينبغى ان يكون مدركا ايضا من حيث هو فكرة ، ومن المتعذر علينا ان تكون على وعى واضح لكلاهما معا فى حالة شعورية بعينها حيث سيختلط ادراكنا للفكرة مع ادراكنا لمدلولها المحسوس مما يؤدى الى ابهام الادراك .. فلو قمنا بتوجيه وعينا للفكرة دون مدلولها الحسى فلسوف نقضى بذلك على المذهب التجريبى .. اذ سوف ينهض ادراكنا العقلى فى هذه الحالة على الفكرة دون الاحساس ونحن اذا قمنا بتوجيه وعينا للاحساس دون فكرته فلسوف يتواجد هذا الاحساس فى وعينا بلا ادراك .. سوف نتصوره دون أن ندركه .. سنتصور شبحا ولا يعد ادراكنا فى هذه الحالة يعتمد على الاحساس .

لاتصور او ادراك حسى :

لاتصور حسى ... فهذا التصور الحسى المزعوم لانتمثله فى وعينا بحريتنا على تمثله كما لانتمثله جبريا فينا ... ونحن لانتثمله بحريتنا على تمثله لاننا لانستطيع ان نرفض تصورنا الحسى لموضوع ادراكنا المحسوس ... لانستطيع ان نرفض احساسنا للشىء الخارجى موضوع تجربتنا الحسية القائمة كأن ننظر لشىء خارجى ونرفض تصورتنا الحسيى له .

فالرفض للاحساس من خلال وقوع حواسنا على موضوعه الخارجى المحسوس رفضا لامعنى له ، لان مجرد النظرة الحسية للاشياء الخارجية اقدام ضرورى لا خيار فيه على تصورها ، ومن ثم ، فلن يكون لرفضنا أى الا باغلاق حواسنا تماما عن الاشياء الخارجية المحسوسة .

وكما لايتم تصورنا الحسى بحريتنا على تصوره فهو لايتم فينا جبريا اعنى اننا لا نستوعبه فى وعينا آليا ومحمولا عبر شبكة الجهاز العصبى الى المخ اذ لو كان كذلك لكان يجب علينا ان ندرك تصورنا الحسى فى عيوننا وفى

اعصابنا التى نقلته الى دماغنا . فان كان حضور الاحساس فى دماغنا كفيلا بتحقيق الادراك فلماذا لا يتحقق لنا هذا الادراك فى عيوننا واعصابنا خلال الاحساس منها متجها الى الشعور ؟

ولا ادراك ... فحتى وان كانت لنا قدرة على استيعاب الاحساس الخارجي وتصوره فى وعينا الا ان قدرتنا على التصور الحسى ليست هى عين قدرتنا على الادراك . أو ملكتنا عليه وذلك لاننا نجهل الاحساس الذى تمثل فى وعينا فهو يأتينا مجهولا من الخارج وبالتالى فلسوف يكن استيعابنا له غير معروف ... سوف نتصور موجودات خارجية فى وعينا دون ان نعلمها ... نتصورها ونختزنها فى ذاكرتنا ثم نســـتعيدها فى وعينا من جديد دون ان ندركها ... وهذا وهم واضح .

لا وجود لكيف متمايز فينا :

ان كان الاحســـاس الواحد بعينه يأخذ باختلاف وضوحه الكيفى فى عقلنا ظواهر عقلية مختلفة كما زعم هيوم ، فانه لمن الصعب علينا ان نميز بين هذه الظواهر العقلية المختلفة اعتمادا على اختلافها فى درجة وضوحها الكيفى ... اذ سوف يستقيم المعنى فى كل ظاهرة من هذه الظواهر العقلية مع غيرها من ظواهر العقل الاخرى التى تشترك معها فى نفس الاحســـاس وسوف لن يعد ثمة فارق بين الاحساس الواقعى الخيالى طالما كان الاحساس هو نفسه فى كلتا الحالتين دون أن يختلف الا فى درجة وضوحه الكيفى .. سوف لن يختلف ادراكنا له مع تعدد درجات وضوحه الكيفى .. لان فكرته لاتختلف باختلاف هذه الدرجات الكيفية كما انه لممتنع على احساس ذهنى ان يتصف بعديد من الدرجات الكيفية فى آن واحد لكى يفسر لنا بالتالى تعدد مظاهر نشاطنا العقلى . فنحن ان كنا فى حالة تمثل لاثر حسى عـلى درجة ما من الوضوح فما الذى يدرينا انه ادراكا موضوعيا ام ذكرى .. ام خيالا ؟ .. وان كنا فى حالة ادراك موضوعى لشيىء من الاشياء تمثلت لنا صورته الحسية على درجة واضحة قوية فهل لكى ندرك هذا الشىء ادراكا خياليا ينبغى ان يفقد وضـــوحه الكيفى القوى فى وعينا لكى ندركه بكيف باهت ! .. فسواء كانت الصورة الحسية المدركة قوية فى وضـــوحها أم متوسطة الوضوح أم خفيفة الوضوح فان ادراكنا لها فى جميع حالاتها ادراكا واحد غير مختلف .. فالتمايز الكيفى للاثر الحسى الواحد لايقتضى تمايزا فى ادراكنا له أو فى نشاطنا العقلى .

فلو قيل لى بان هيوم قد قال بعدة آثار حسية على درجات مختلفة من الوضوح الكيفى ولم يقل باثرا حسيا واحدا متعدد الدرجات الكيفية اقول لو كان للخيال مثلا اثرا حسيا ضعيفا خاصا به الى جانب آخر قوى

للادراك الواقعى وثالث متوسط خاص بالذاكرة فان ضعف وضـــوح الاثر الخيالى عن وضـــوح تلك الآثار الأخرى لن يجعل ادراكنا له مختلفا عن ادراكنا لها ... فهى لن تختلف جميعها فى وعينا من حيث هى مدركات وكما لاتختلف من حيث هى مدركات فان لها جميعها نفس الجهة الواقعية لأن لها نفس الطبيعة الحسية .

الخيـال

ولسوف يمتنع علينا نشاطنا الخيالى وفقا للفكر التجريبى وهـــذا ما سوف اثبته فيما يلى :

نشاط عقلى بلا مدركات حسية :

ان تصورتنا الحسية لاتقبل التحريف الخيـــالى لأن هذا التحريف سيكون وعيا آخر الى جانب الوعى بالاحساس موضوع التحريف الخيالى .. فالاحساس موضوع التحريف الخيالى — من حيث هو مصدر ادراكنا — يفرض على وعينا خلال تمثله فيه حالة من الادراك لانستطيع تجاوزها ... لانستطيع تجاوز حالة الادراك التى فرضها تواجده فى وعينا ... لانستطيع أن ندركه الا بمثل ما تمثل لنا فى وعينا لكننا بتحريفنا الخيالى له فانما نتجاوز وعينا له الى الوعى لتحريفه فالتحريف هو وعيا آخـــر الى جانب الوعى لموضوعه الحسى ، وهذا وهم .

ولمـا كان تحريفنا الخيالى وعيا آخر الى جانب وعينا للاحســـــاس موضوع التحريف الخيالى نفسه فهو مضافا الى ذلك تحريفا لموضوعية هذا الاحساس وافسادا له ، وهذا باطل ، لاننا ونحن نرسم تصويرا خياليا فى وعينا فاننا نكن على وعى من اننا نقوم بنشاط خيالى .. على وعى من اننا نتخيل وعلى وعى لموضوعية الاحساس الذى احاله التحريف الخيالى الى مدرك خرافى .. فتصوراتنا الخيالية ليست ذات طبيعة حسية لانها لوكانت كذلك لبطلت جميع مدركاتنا الحســـية حالما نتخذها موضوعات لتحريفنا الخيالى .. فتصويرنا الخيالى لا يعتمد على مدركاتنا الحسية فى نشاطاته وعليه فان من الممكن ان يقوم فينا نشاطا عقليا فى معزل عن تصوراتنا الحسية .. فى معزل عن مدركاتنا الحسية المزعومة فينا .. وهذا وهم .

ضرورة حضور التصوير الخيالى قبل تصويره :

تصويرنا الخيالى هو تصويرا واعيا ، لأنه ان لم يكن كذلك لكانت العناصر الحسية التى تكون من مجموعها تصويرنا الخيالى تتدافع فى وعينا تدافعا عشوائيا فيكون تدافعها بالتالى نظاما يحكم جميع نشاطنا العقـــلى بأسره بجميع ظواهره .. لكان الطابع الوحيد الذى تنتظم فيه جميع تصوراتنـــا ومدركاتنا العقلية حيث لا يعقل أن تكون لمدركاتنا الواقعية حالا تنتظم فيه على نحو واقعى دقيق وحالا آخر تنتظم فيه على نحو مسعور ومتخبط . وعليه فينبغى أن تتشكل تصوراتنا الواقعية بنفس النظام الذى تتشكل به تصويرتنا الخيالية ... وهذا وهم .

فتصويرنا الحسى الخيالى هو تصويرا واعيا ولكى يكن كذلك فينبغى الا تكن بنا حاجة لهذا التصوير ، اذ لكى نكن على وعى لما نريد تصويره فينبغى — وفق الفكر التجريبى — حضور التصوير الخيالى حسيا فى وعينا قبل تصويره بالفعل ... ينبغى حضور الصورة الخيالية قبل تصويرها فيمتنع علينا تصويرنا الخيالى .

اننا لكى نكن على وعى لما نريد تخيله فينبغى ان نتمثله حسيا فى وعينا قبل تخيله . ولكى نتمثله كذلك فليس ثمة داع لتخيله ، لأنه قد تواجد فى وعينا بالفعل ، اذ لكى نكن على وعى لخيالاتنا فينبغى ان نتمثلها حسيا قبل ان نتخيلها ... ينبغى ان يتواجد التصوير الخيالى قبل تصويره وهذا وهم .

تصورات تربطها تصورات :

رأى الفيلسوف الانجليزى ديفيد هيوم ومن جرى فى أثره من الفلاسفة التجريبين أن الفكرة العقلية هى مجرد عادة ذهنية تطرأ فى وعينا من خلال تعاقب انطباعاتنا الحسية بنظام دقيق فانطباعتنا الحسية تتجاوز أوتتعاقب فى وعينا كما تتجاوز أو تتعاقب فى الخارج .. والفكرة التى ندركها من خلال توارد هذه الانطباعات الحسية فى وعينا انما ندركها كعادة ذهنية جرى تعللنا لها من خلال هذا التجاوز أو التعاقب .. فنحن لانستطيع تعلقها كفكرة مجردة فى معزل هذه الانطباعات الحسية التى ترتبط بها وانما تدركها بحضور هذه الانطباعات .

ونحن — لو جعلنا هذه الفكرة ... هذه العادة الذهنية التى تطرأ فى وعينا من خلال تعاقب انطباعات حسية معينة محورا لنشاطنا الخيالى كأن نقيمها مثلا بين انطباعات حسية أخرى لم تدرك بينها ... لم تدرك مرتبطة بها أو لم نعتاد على ادراكها بينها فى وعينا . فلسوف نفاجأ فى مثل هذه الحالة بالانطباعات الحسية التى اعتدنا ادراك هذه الفكرة (العادة) بينها لأن هذه الفكرة لاتدرك — فى الفكر التجريبى — فى معزل عن الانطباعات الحسية التى فهمت بتواترها فى وعينا . وبالتالى فلسوف يغدو تصويرنا الخيالى عبارة عن انطباعين حسيين تربطهما فكرة هى بدورها عبارة عن انطباعين حسيين وهما هذين اللذين اعتدنا ان ندرك الفكرة المذكورة بتواترهما فى وعينا ... اعنى نربط انطباعات حسية بانطباعات حسية أخرى لأن الرابطة الذهنية عند التجريبيين لاتدرك فى وعينا على شكل فكرة مجردة .. اعنى لاتأخذ طابعا عقليا صرفاوانما تدرك من خلال تعاقب انطباعاتنا الحسية التى اعتدنا ادراكها بينها كعادة ذهنية وعليه فلكى نقيم هذه الرابطة فى نشاط خيالى بين تصورين حسيين لم نألف أو نعتاد ادراكها بينهما فينبغى أن نقيم بينهما التصويرين الحسيين اللذين قد اعتدنا

بتواترهما فى وعيبا ان ندرك هذه الرابطة المذكورة . وبالتالى فنحن لكى نتخيل فينبغى ان نتخيل تصورات حسية ترتبط بتصورات أخرى حسية ... تصورات تربطها تصورات .. وهذا وهم واضح .

والغريب اننا ان كنا نقيم فكرة هى عادة ذهنية تنشـــأ فى وعينا من خلال عبور احساســـات معينة فيه ... ان كنا نقيم هذه الفـكرة بين احساسات أخرى فأين هى الفكرة (العادة الذهنية) التى لابد من فهمها بالضرورة ـ وفق الفكر التجريبى ـ بين هذه الاحساسات موضوع نشاطنا الخيالى . ! . ! .. اذ لايعقل أن تمر فى وعينا احساسات معينة دون ان تخلق فيه اعتيادا لنوع ما من الأفكار ، فأين هى هـــذه الأفكار اذا ما كنا بصدد تصور روابط أخرى مكانها فى نشاطنا الخيالى !!

لابد ان يطرأ فى وعينا ـ وبالضرورة التجريبية ـ فى هـــذه الحالة فكرتين معا أو عادتين ذهنيتين فى آن واحد .. بين احســـاسين بعينهما .. الفكرة التى تربطهما حقيقة كعادة ذهنية الفناها فى وعينا والفكرة التى نحن بصدد تصورها بين هذه الاحساسات فى نشاطنا الخيالى ، فيكون لدينـا بالتالى فكرتين مدركتين بين احساسين بعينهما .. وهذا وهم ..

الذاكــرة

ولسوف يصبح اعتقادنا بوجود خبرات حسية مختزنة فى عقولنا وفقا للفكر التجريبى امرا زائفا .

ذكرياتنا ليست هى بعينها باستمرار :

اننا كما نذكر خبراتنا العملية المـاضية فنحن نذكر خيالاتنا السابقه. وفى كلتا الحالتين فنحن لانكاد نذكر خبراتنا العملية وتصوراتنا الخيالية بكامل تفاصيلها كما حدثت فى الخارج وفى وعينا فى الماضى .. نحن لانكاد نذكر الا جانبا ضئيلا من هذه الخبرات العملية والتصورات الخيالية ودون ان نذكرها بكامل تفاصيلها ..

فالاثر الحسى القابع فى الذاكرة ، خبرة عملية كان أم تصورا خياليا ينبغى استعادته على هيئة وتفاصيل واحدة بعينها .. ييبغى أن يكون متكررا بعينه فى كل حالات تذكره ، لكن الملاحظ أن تذكر حدثا أو تصورا مايختلف فى كل حالة يتم فيها تذكر هذا الحدث أو التصور .. فنحن فى جميع هذه الأحوال نتذكر صورا مختلفة لحدث بعينه ، فى كل مرة نحاول فيها استرجاع هذا الحدث أو التصور الخيالى .. فالصورة التذكرية ليســـت هى هى باستمرار ..

ثم اننا نذكر خبراتنا العملية وتصوراتنا الخيالية دون ما صاحبها من ظواهر وجدانية .. فنحن برغم آلام الحوادث الماضية نستدعيها كما لوكانت قد حدثت دون آلام أو اكتراث ... نستعيد خبراتنا الحسية المـاضية التى صاحب وقوعها عواطف أو انفعالات محددة لكن دون أن نستعيد هذه العواطف أو الانفعالات .

واخيرا ... كيف نذكر تصوراتنا الخيالية مع استحالة حشرهاالى جانب خبراتنا العملية الماضية داخل الذاكرة ؟ فالذاكرة حظيرة لخبراتنـــا الحسية وليست لتكويناتنا الخيالية .. فتصوراتنا الخيالية ان كانت ذات طبيعة حسية فلسوف نفقد بتكوينها جزءا من ذكرياتنا لأن تكوين هـــذه التصويرات الخيالية سوف يعتمد على الانطباعات الحســـية المتواجدة فى الذاكرة .. وعليه فلسوف نفقد جزءامن انطباعاتناالحسية المختزنة الذاكرة ... بحيث لو افرطنا فى تصويراتنا الخيالية .. فاننا سوف نفقد ذكرياتنا بكاملها .. وهذا وهم ..

وان لم تكن تصويراتنا الخيالية ذات طبيعة حسية فلن يكن لها وجود داخل الذاكرة لانها انلم تكن محددة داخل عقلنا فلسوف يصعب علينا بالتالى

استدعاءها كما تصورناها فى الماضى .. فان تمكنا من استدعائها فلسوف يكون تكوينها فى وعينا تكوينا ذاتيا صرفا .. تكوينا لها فى حينها حالما نكن على وعى لها وهذا مخالف للفكر التجريبى .

اختزان الخبرات الحسية يعطل الادراك :

يستحيل على مفكر تجريبى أن ينكر ان ثمة خبرات حسية تحتشد فى ذاكرتنا ، لكننى ارفض وجود هذه الخبرات الحسية المزعومة ... فمدركات الذاكرة تتداخل فى ادراكنا الحسى الحاضر تداخلا ضروريا لاغنى منه لمواصلة هذا الادراك ... فادراكنا الحسى لايمكن تسميته ادراكا حاضرا ، فاللحظة الحاضرة التى ندرك فيها احساسا ما من حدث خارجى سرعان ما تزول لندرك احساسا آخر من هذا الحدث الخارجى المحسوس فى لحظة او لحظات تالية ، فادراكنا الحسى لايصور لنا الاشياء والاحداث فى لحظة خاطفة .. وانما هو مجموعة لاحصر لها من المعطيات الحسية .. ولما كنا لا ندرك هذه المعطيات الحسية فى لحظة خاطفة بعينها وانما ندركها فى عديد من اللحظات الزمنية المتتابعة الموصولة .. فان هذه المعطيات الحسية المدركة هى فى حقيقتها مجموعة من الذكريات المدركة لانها ادركت فى لحظات زمنية ماضية .. وهى فى مجموعها ـ كمدركات حسية ماضية ـ الى جانب هذا الاحساس الحالى المباشر فى هذه اللحظة تتداخل فى ادراكنا الحسى تداخلا ضروريا لابد منه لهذا الادراك .. اذ لايمكن فهم هذا الاحساس الحالى فى معزل عن الاحساسات الاخرى الماضية التى ترتبط واياه فى حدث واحد محسوس ، ونحن لكى ندرك ما مر من هذا الحدث الخارجى المحسوس فينبغى أن نكون على وعى لجميع معطياته الحسية الماضية التى تفاوتت بحضورها فى وعينا تفاوتا زمنيا .. فاصبحت مجموعة من الذكريات وليست ادراكا حسيا حاضرا ... مجموعة من الذكريات الى جانب استمرار استقبال احساسات أخرى بطريق الحواس .. وهذا ممتنع علينا لاسباب منها : ان وجود معطيات حسية فى وعينا يمنعنا من مواصلة استقبال معطيات حسية اخرى الى جانبها . ان وعينا لايتسع لادراك داخلى ومواصلة استقبال احساسات اخرى خارجية .. فى آن واحد .. ففى حالة مواصلة استقبال احساسات خارجية سوف تندفع المعطيات الحسية المتواجدة فى وعينا باتجاه الذاكرة .. فينقطع وعينا لها وعليه فلسوف ندرك ما نشاهده فحسب دون أن ندرك اننا قد شاهدناه . أو بعضا منه قبل ذلك .. سوف نكن على وعى وكاننا ندرك لتونا دون أن نكن على وعى باننا ندرك احساسا هو جزء من حدث خارجى لازلنا نتابع مشاهدته ونذكر ما مر منه .. ونحن ان احتفظنا بهذه المدركات الحسية الماضية فى وعينا الى جانب استقبال اخرى خارجية فلسوف تتصادم هذه مع تلك

فيلتبس علينا الادراك ويختل .. ولو لم تتصادم هذه المدركات الحسية في وعينا .. اعنى لو كان فى مقدورنا ان نحتفظ بعديد من المعطيات الحسية فى حالة من الوعى بعينها فانه ليس فى مقدورنا ان ندرك هــذه المعطيات الحسية كأفكار ماثلة فى وعينا .. لانستطيع ان ندرك عديد من الافكار فى حالة من الوعى بعينها .. فنحن لانستطيع أن نوزع وعينا بين هذا العديد من الافكار .. وقد يرى معترض ان من الممكن لنا ان نتصور هذا العديدمن المعطيات الحسية فى حالة من الوعى بعينها دون أن نكن على وعى لمعانيها .. دون ان نكن على وعى لها كأفكار .. هنا سوف يستوى وجود هذه المعطيات الحسية فى وعينا مع عدم وجودها لاننا فى تلك الحالتين لن نكن على وعى وإدراك لها .. ستكن فى حال وجودها فى وعينا مجرد اشباح محسوسة لامعنى لها ، وعليه فلسوف ينقطع وعينا عما مرت مشاهدته من الحدث الخارجى المحسوس .. اضف الى ذلك ان وجود محسوسات ذهنية دون ادراك مخالف للفكر التجريبى الذى يقيم ادراكنا بأسره على وجود هــذه المحسوسات فى وعينا .. والأخطر من ذلك ، انه سوف يكون فى مقدورنا أن نتصور احساسات معينة دون ان ندركها .. وهذا وهم .

ومن الأسباب التى تحول دونتجمع العديد من المعطيات الحسية أو الذكريات فى وعينا خلال التجربة الحسية .. التى تحول دون احتفاظنا بمعطياتنا الحسية الماضية الى جانب اتصالنا الحسى بموضوع ادراكنا المحسوس .. التى تحــول دون تداخل ذكرياتنا فى ادراكنا الحسى ، إن مقتضيات ادراكنا الحسى تتنافى مع مقتضيات وجود ذاكرة فينا ، تحتشد فيها مدركاتنا الحسية ... فالموجود الخارجى المحسوس ندركه من خلال مجموعة كبيرة من المعطيات الحسية المتدافعة الى وعينا حالما تقع حواسنا عليه ، فتجتمع لدينا فى وعينا لكى تتصور لنا بالتالى فى صورة حسية واحدة تتوافق مع مدلولها الخارجى ... بينما نجد ان فكرة الذاكرة تقوم على ضرورة دفع كل احساس مدرك من الشعور وفى اتجاه الذاكرة دون ابطاء حتى يفسح المجال لاستقبال معطيات حسية جديدة فيمتنع علينا بالتالى تصوير موضوع ادراكنا المحسوس لأن معطياته الحسية ستتدافع باتجاه الذاكرة فلا نقوى على تصور احساس واحد من مجموعها ... يمتنع علينا التصوير الحسى .. وهكذا ... فبينما نجد اننا بحاجة لذكرياتنا حالة الادراك الحسى لانها تتداخل فى هذا الادراك تداخلا ضروريا الا اننا نجد أيضا ان فكرة الذاكرة تمنع هــذا التداخل لهذه الذكريات فى ادراكنا الحسى المذكور .

الوعى

ينبغى أن تنقلب نظرتنا التجريبية الى وعينا رأسا على عقب ، وهذا ما سوف يتضح مما يلى : ـ

ادراكنا ليس حالة من الوعى فى معزل عن العقل المفكر :

ـ خلافا للفكر التجريبى ـ فان ادراكنا العقلى يتجاوز الأثر الحسى المزعوم ، أعنى أن ادراكنا ليس حالة من الوعى تتهيأ لنا بوجود الأثر الحسى الخارجى فى عقلنا ، وانما يتهيأ لنا من تضـــافر جميع ملكات العقل فيما بينها . ادراكنا ليس وعيا جانبيا فى معزل عن ملكاتنا العقلية ، وانما هـــو وعيا يشمل العقل باسره بحضور جميع ملكاته .. فنحن فى ادراكنا العقلى لانستطيع ان نتحقق من صحة أو بطلان قضية من القضايا المطروحة علينا ما لم يتداخل نشاطنا العقلى فى فهمنا لهذه القضية ، وفهمنا لها هو هذا الأثر الذى تمثل لنا فى وعينا ، فينبغى أن نتجاوز فهمنا له الى نوع من النشاط العقلى ... فادراكنا حالة تصطحب معها باستمرار نوعا من النشـــاط العقلى « فكرا كان ام خبرة ماضية أم خيالا ، وبدون هذا النشـــاط فلسوف يتعذر علينا الحكم .. فقد يتصل هذا القول المسموع باتجاهتنا الفكرية أو بخبرتنا العملية أو بتصوراتنا المثالية ، وعليه فلكى نتحقق من صحته أو بطلانه ، فينبغى ان يتداخل فى فهمنا له هذه الاتجاهات الفكرية او تلك الخبرة العملية أو ذاك التصور المثالى .. ومن خلال هذا الوعى الشامل .. هذا النشاط العقلى ، نستطيع الحكم على القول المســـموع بالصحة أو البطلان » .

ان جميع احوال الادراك التى تطرأ فى وعينا من خلال احساساتنـــا الخارجية ليست حالات من الوعى تتوافر لدينا بحضور الآثار الحسية فى عقولنا ، وانما نحن فى مثل هذه الأحوال نتجاوز هذه الآثار الحسية لما يتداخل فيها من نشاطات عقلية ، فأحوال الادراك تتضافر فيها جميع ملكاتنا العقلية ولا يمكن أن تكون وقفا على الأثر الحسى المباشر من خلال التجربة ، لايمكن أن يكون ادركنا مجرد استجابة عقلية لمصدر حسى خارجى كما يزعم علم النفس التجريبى خصوصا فالادراك ليس وظيفة يؤديها العقل فى معزل عن ملكاته الأخرى ، وانما هو نشاطا عقليا يتم بحضور جميع هذه الملكات ، ولو لم يكن كذلك ، لكان يمكننا ونحن فى حالة ادراك حسى أن نقوم بنشاطا عقليا آخر الى جانب هذا الادراك أو ان نقوم بعديد من هذه النشاطات بتوافر عديد من الملكات العقلية لدينا ، كأن نفكر أو نتخيل أو نتذكر الى جانب ادراكنا الحسى .. وهذا وهم واضح .

والخلاصة .. أن وعينا ليس حالة جانبية فى معزل عن عقلنا المفكر وانما هو وعيا يلف العقل باسره بحضور جميع ملكاته .

سوف نقع فى حيرة التصور :

الأثر الحسى الذى يتواجد فى وعينا خلال التجربة الحسية قد لا يكون هو هذا الذى استقبلناه بالفعل خلال تجربتنا القائمة ، وانما هو ذاك الأثر الحسى الذى ادركناه فى تجربة سابقة .. واثير فى وعينا بحضور مدلوله الخارجى امام حواسنا الآن .. اعنى ما الذى يدرينا ان هذا الأثر الحسى المـاثل فى وعينا الآن هو من معطيات التجربة الحسية الحاضرة أم هو ذاك الأثر الذى ادركناه فى تجربة سابقة ، وتم حضوره فى وعينا بحضـــور مدلوله الخارجى فى هذه التجربة ! ؟ فكما قد نكون على وعى للاحساس الحالى ، فينبغى أن نكون على وعى لنفس الاحساس كما ادركناه فى السابق ... من حيث هو فكرة مدركة ، ونحن لانستطيع أن نكون على وعى للاثنين معا فى حالة من الوعى بعينها .. لانهما فكرة واحدة ، ولايعقل ان تتمثل لنا هذه الفكرة فى وعينا فى احساسين معا !

بينما نجد ان المذهب التجريبى يلزمنا بأن نكون على وعى لكلاهما معا فى حالة وعى بعينها .. على وعى للاحساس الحالى من جهة وللاحســاس من حيث هو « فكرة » مدركة من جهة اخرى ، ولا مناص لأحدهما من ان يتواجد بالضرورة بتواجد الأخر ، فالاحســـاس الحاضر ينبغى أن يثير فى وعينا ادراكنا السابق له الى جانب احســاسنا له فى الوقت الحاضر ، والاحساس المدرك فى الماضى لايتيسر لنا استدعاءه الى وعينا الا بتوافر وقوع حواسنا على مدلوله الخارجى ... وهكذا ، فالفكر التجريبى يلزمنا فى حالة التجربة الحسية أن نجمع بين الأثر الحسى المعطى لنا منهـا وبين ذاك الأثر المدرك فى تجربة حسية سابقة .. بين الاحساس الحاضر وبين ادراكنا السابق له من حيث هو فكرة مدركة فيكون لدينا احساسين لفكرة واحدة ، وهذا وهم واضح .

ونحن ان كنا ــ حقيقة ــ لانتصور الاثنين معا ، فاى منهما هو هــذا الذى نتصوره والذى يتمثل لنا فى وعينا خلال التجربة الحسية ! ؟ سنكون فى حيرة من هذا التصور ... هل هو هذا المعطى الحسى الذى استقبلناه لتونا من الخارج . أم ذاك المدرك المـاضى ؟ .. وفى كلتا الحالتين تقويض للفكر التجريبى .

عديد من المدركات فى حالة من الوعى بعينها :

اذا كان ممكنا لنا توجيه احساسنا لعديد من الاشـــياء الخارجية المحسوسة فى آن ـ بعينه ـ فان من الممكن لنا توجيه وعينا لنفس هـــذا العديد من الأشياء الخارجية عن طريق توافر آثارها الحسية فى عقلنا وفى حالة وعى بعينها ... وبتفضيل آخر ، أن كان ادراكنا العقلى يعتمد على الاحساس .. وان كان ميسورا لنا توجيه احساسنا لاكثر من محسوس واحد فى وقت واحد فينبغى أن يكون فى مقدورنا أن نستوعب هذه الـكثرة الحسية فى وعينا فى نفس هذا الوقت ، لأننا أن لم تكن نقدر على استيعابها لكانت معظم المحسوسات التى وقع عليها احساسنا بلا ادراك .. اعنى لكان ممكنا لنا ان يقع احساسنا على شىء خارجى محسوس دون ان ندركه وهذا مخالف للمذهب التجريبى.

ونحن لكى نتستوعب هذه الكثرة الحسية فى وعينا فينبغى أن يـكون ميسورا لنا ان ندرك عديدا من المحسوسات فى حالة من الوعى بعينها .. عديدا من الافكار فى حالة بعينها من الوعى العقلى ، اذ مادمنا نســـتطيع ان نحتفظ باكثر من انطباع حسى فى هذه الحالة بعينها من الوعى ، فلابد أن ندرك اكثر من فكرة واحدة فى هذه الحالة بعينها ، وعليه فلسوف يكون باستطاعتى مثلا ان اناقشك فى فكرة ما الى جانب ادراكى لافكار أخـرى غيرها ماثلة فى وعيى .. أو ان أحدثك فى موضوع ما حاضرا فى وعيى بينما ثمة موضوعات اخرى حاضره تنتظر الحديث ، وهذا وهم واضح ..

وأخيرا ، سوف يتفسخ نشاطنا العقلى باسره وبجميع ظواهره ، وفقا للفكر التجريبى ، وهذا ما سوف أوضحه فيما يلى :

تفكير من خلال الاحساس الخارجى .. لا الاحساس المدرك :

من خلال احساسى الحقيقى بالعالم الخارجى استطيع ان ازاول نشاطى العقلى باختلاف ظواهره . فافكر واتخيل أو اتذكر .. الخ .. لكنى لا استطيع ان ازاول هذا النشاط العقلى المذكور من خلال احساسى المدرك لهذا العالم الخارجى ، اعنى ، اننى لو تمثلت احساسى للعالم الخارجى ثم حاولت مزاولة نشاطى العقلى من خلاله لعجزت تماما .. فانا الآن مثلا اذكر حياتى الجامعية وما تخللها من وقائع من خلال احساسى بوجودى فى هذا العالم الخارجى المحسوس .. من خلال احساسى بوجودى بين هذه الأشياء المحسوسة حولى . فلو قمت بتمثيل هذا الاحساس بالعالم الخارجى فى وعيى تمثيلا حسيا ثم حاولت بالتالى ان اذكر حياتى الجامعية من خلال تمثلى له لعجزت تماما ، سوف افقد وعيى لاحساسى بالعالم الخارجى المدرك بمجرد حضور الذكرى فى عقلى .. والسبب فى هذا العجز هو ان احساسى المدرك لعالم الاشياء الخارجية لا يأخذ طابعا حسيا فى وعيى ، لانه لو كان كذلك لكان باستطاعتى ان ازاول نشاطى العقلى من خلال وجوده فى وعيى مثلما ازاول هذا النشاط من خلال احساسى له فى الخارج .. فلو كان احساسى للعالم الخارجى يوجب على أن اتمثل آثار هذا الاحساس أو معطياته فى وعيى ، لكنت حالما ازاول نشاطى العقلى من خلال احساسى بهذا العالم الخارجى فانما ازاول هذا النشاط من خلال تمثلى لآثاره الحسية فى وعيى ، وعليه ، فلكان ممكنا لى ان ازاول نشاطى العقلى من خلال تمثلى لاحساسى بالعالم الخارجى ، فافكر واتخيل أو اتذكر من خلاله ما اشاء كما لو كان احساسا خارجيا بالفعل وليس احساسا داخليا ، فكما نستطيع ان نمارس نشاطنا العقلى من خلال احساسنا الفعلى لهذا العالم الخارجى فينبغى أن نكون قادرين على ممارسة هذا النشاط نفسه من خلال احساسنا المدرك له .. من خلال حضوره فى وعينا كتصور حسى عام ، فادراكنا للعالم الخارجى المحسوس لا يأخذ نفس الطبيعة الحسية التى له فى الخارج ، والا لكان فى مقدورنا ان نفكر ونتخيل أو نتذكر من خلال ادراكنا له تماما مثلما نفكر ونتخيل أو نتذكر من خلال احساسنا الخارجى له .. وهذا وهم واضح .

فالاحساس هو فى حقيقته ادراك ، وان كنا نمارس نشاطاتنا العقلية من

خلال هذا الاحساس فلماذا لانمارس هذه النشاطات عينها من خـــلال ادراكنا له ؟؟

فاحساسنا للعالم الخارجي لايمكن تواجـــده فى وعينا كتصور حسى شامل لكى نفكر أو نتخيل من خلاله مثلما نفكر ونتخيل من خلاله احساسنا الخارجى له .

فلو قيل ، ان افكارنا وتصوراتنا الخيالية ذات طبيعة حســـية ، وبالتالى فلسوف يتعذر علينا هذا الفكر والتصور الخيالى الحسى من خلال احساسات أخرى ماثلة فى وعينا ...! أقول ، ان كان صحيحا أن تكون افكارنا وتصويراتنا الخيالية ذات طبيعة حسية ، لما كان ممكنا لنـــا أن نفكر أو نقوم بتصويراتنا الخياليـــة من خلال احساسنا الفعـــلى للعالم الخارجى ... لما استطعت مثلا وأنا مار فى شارع مزدحم أن أتخيـــل أو أتذكر لان ادراكى الحسى لهذا الشارع يمنع امكان تصور مدركات حسية اخرى الى جانب هذا الادراك ذات طابع خيالى أو من الذاكرة .. اذكيف أتخيل أو أذكر خبرات حسية من خلال ادراكى لاحساس ماثل فى وعيى ؟! فهذا القول المذكور مردود اذن ومرفوض .

وهكذا ، فان كان ممكنا لنا أن نمارس نشاطنا العقلى من خـــلال احساسنا الفعلى للعالم الخارجى ، فان من غير الممكن لنا أن نمارس هـــذا النشاط من خلال ادراكنا الحسى لهذا العالم الخارجى ، وهـــذا يعنى بدوره وبالضرورة ان ادراكنا العقلى لاينهض على الاحســـــاس ، لأنه لو نهض على الاحساس لكان فى مقدورنا أن نمارس نشاطنا العقلى من خلال الاحساس الداخلى مثلما نمارسه من خلال الاحســـــاس الخارجى ... وهذا وهم .

سوف ياخذ نشاطنا العقلى طابع الذكريات ...

الفكر التجريبى لايخولنى اقامة رابطة ذهنية بين احساسين مدركين لم اعتاد على ادراك هذه الرابطة بينهما تجريبيا ... لم اعتاد على ادراك هذه الرابطة من خلال تعاقبهما فى وعيى ، فادراكنا لهذه الرابطة سيكون مقيدا بحضور المعطيات الحسية التى أدركنا هذه الرابطة من خـــلال تعاقبها فى وعينا ، ومن ثم ، فلسوف يتعـــذر علينا استخدام أفكارنا استخداما حرا فى نشاطنا الفكرى والخيالى ... سوف نفاجأ بالمعطيات الحسية عينها حين تخطر فى وعينـــا فكرة مدركة ارتبط ادراكنا لهـــا بتعاقب هذه المعطيات الحسية فى وعينا .. فالرابطة الذهنية - فى الفكر التجريبى - تدرك فى وعينا كعادة ذهنية تطرأ بتعاقب تصورات حســـية

محددة ، ولا يمكن ادراكها فى معزل عن هذا التعاقب الحسى الذى صاحب ادراكنا لها ، فأفكارنا لاتدرك مجردة وفى ذاتها وانما بمصاحبة ما رافق ادراكنا لها من تصورات حسية ، وعليه ، فنحن لكى نفكر او نتخيل فلسوف نفاجأ بأفكارنا وتصوراتنا عينها التى خبرناها فى الماضى ، لاننا ندرك أفكارنا متصلة بما رافقها من تصورات حسية ولا ندركها فى معزل عن هذه التصورات .. سوف يأخذ نشاطنا العقلى باستمرار طابع الذكريات ، وهذا وهم .

وتصويرنا الخيالى ينبغى أن يعتمد على نفس الانطباعات الحسية التى اكتسبناها بالتجربة الحسية ، والا فمن أين تأتينا معطيات تصويرنا الخيالى ؟ ان لم تكن هى بعينها معطياتنا الحسية المدركة . فهى من خلقنا نحن فى معزل عن التجربة الحسية ومعطياتها ، فيكون لها بالتالى طبيعة ذهنية غير تلك الطبيعة الحسية المزعومة ، وهذا مخالف للفكر التجريبى فتصويرنا الخيالى اذن ينبغى أن يعتمد على نفس المعطيات الحسية المدركة ، وتعاقب هذه المعطيات الحسية فى وعينا حالة تصويرنا الخيالى ينبغى ان يأخذ نفس الطابع الذى تتعاقب فيه هذه المعطيات الحسية حالة تصويرنا الواقعى ... ينبغى أن يخلق نفس الفكرة التى يخلقها هذا التعاقب فى حالات التصوير الواقعى ، فنحن فى كلا التصويرين الواقعى والخيالى نعتمد على نفس الانطباعات الحسية ونفس شروط التعاقب ، وبالتالى فسندرك كلاهما تكوينات عقلية واحدة بعينها ، سوف يستوى تصويرنا الواقعى والخيالى ، وتغدو تصويراتنا العقلية باستمرار هى بعينها تلك التصويرات المدركة تجريبيا ... سوف يأخذ تصويرنا العقلى دائما طابع الذكريات ، وهذا وهم واضح .

وهكذا ، فلسوف يأخذ نشاطنا العقلى بأسره ــ وفقا للفكر التجريبى ــ طابع الذكريات ، فكرا كان أم تصويرا خياليا ...

سوف يتعذر علينا الاستنتاج النظرى ...

ــ كما أوضحت ــ فالفكرة العقلية عند الفلاسفة التجريبيين ،هى مجرد عادة تطرأ فى وعينا من خلال تداعى تصوراتنا الحسية ، فهى عادة تدرك بحضور هذه التصورات ولا تدرك فى معزل عنها ، فهى بدون وجود مستقل كفكرة مدركة فى معزل عن تصوراتنا الحسية التى ادركت من خلال تواترها فى وعينا . لكن ، لماذا لايتعاقب تصورنا للعالم الخارجى بأكمله مع تصورنا لحواسنا فى كل حالة ادراك حسى ؟.. الم تدرك الصورة الحسية من خلال تجاور حواسنا مع العالم الخارجى .. وحيث يبدو

ادراكنا الحسى وكأنه رابطة بين تصورنا الحسيى للعالم الخارجى وبين الحواس ...!!

فالفكرة عند التجريبيين لاتدرك فى معزل عن المعطيات الحسية التى فهمت من خلالها وانما تدرك من خلال تعاقب هذه المعطيات الحسية او تجاورها فى وعينا ، فالفكرة بالتالى لا تخضع للتصور لأنها ليست شيئا فى ذاتها ... ليست احساس ، فلا يمكن تأملها فى ذاتها كفكرة عقلية وانما ينبغى لكى نتأملها وندركها أن ندركها من خلال تعاقب المعطيات الحسية التى فهمت هذه الفكرة من خلال تعاقبها فى وعينا ، بحيث يخلق هذا التعاقب الحسيى فى وعينا ادراكنا للفكرة .

فالفكرة العقلية عند الفلاسفة التجريبيين ليست شيئا يمكن تصوره فى الذهن لانها ليست احساسا ، ومن ثم ، فهى ليست ادراكا عقليا فى ذاتها ... ليست ادراكا عقليا يمكن أن يكون موضع تأمل عقلى ، وعليه ، فلسوف يمتنع علينا الاستنتاج النظرى وهو ضربا أساسيا من ضروب التفكير العقلى ... فان كنت قد أدركت فى تجربة حسية ان النحاس يتمدد بالحرارة فسوف لن افهم فكرة التمدد هذه الا من خلال تجاور احساساتى الذهنية للنحاس والنار فى وعيى ، لان ادراكى لفكرة التمدد قد تم خلال تجاور هذه الاحساسات فى وعيى خلال التجربة الحسية ولا يمكن فهمها فى معزل عن هذا التجاور ، فلكى أعمم فكرة تمدد معدن النحاس بالحرارة على مجموع المعادن الاخرى ... لكى أعمم ادراكى لهذه الفكرة على بقية المعادن الاخرى فلسوف احمل احساساتى الذهنية للنحاس والنار على تصورى الحسى للحديد والزنك والرصاص ... الخ فتختلط التصورات الحسية فى وعيى ويتعذر على الفهم والاستنتاج النظرى ، فالفكرة لاتدرك الا بتجاور احساسات معينة داخل الوعى ، فهى اذن هذه الاحساسات المتجاورة عينها ولكى اعمم ادراكى لهذه الفكرة على اشياء اخرى فينبغى أن احمل هذه الاحساسات المتجاورة فى وعيى على تصورى الحسى لتلك الاشياء .. وهذا وهم واضح .

نقد الفلسفة العقلية

الادراك

لا طبيعة للادراك ... فكما استحال أن يكون ادراكنا ذا طبيعة حسية ، فلسوف يستحيل على هذا الادراك أن يكون مؤلفا من حشد من المعانى والأفكار المحددة الجاهزة فى عقلنا ، فادراكنا بغير طبيعة حسية أو عقلية ... هو بغير طبيعة اطلاقا .

اننا حينما نسأل عن طبيعة ادراكنا فانما نحن بسؤالنا التقليدى هذا ، نسأل عن طبيعة هذه المدركات المزعوم بوجودها محددة فى عقولنا .. فقد تصور الفلاسفة أن عقلنا ذا محتوى يكتظ بالمدركات التى تمكنه من معرفة الوجود الخارجى وقد نظر بعضهم لطبيعة وجود هذه المدركات فى عقولنا نظرة حسية خالصة ، بينما ذهب البعض الآخر الى القول بأن هذه المدركات فى مجموعها أفكارا عقلية خالصة ، وقال آخرون انها مزيج من هذه ومن تلك ، أى ان ادراكنا العقلى هو فى مجموعه حسيا وعقليا فى آن واحد ... ومع اختلاف نظراتهم الى طبيعة ادراكنا فانهم يشتركون جميعا فى الاعتقاد بأن عقلنا ذا محتوى أو سعة يمكن ملؤها بالمدركات ، ثم راحوا يفكرون فى طبيعة هذه المدركات ، فكان تفكيرهم هذا بداية للخلاف بينهم .

ومن الواضح أيضا أن سؤالنا عن طبيعة الادراك ليس سؤالا عن طبيعة العقل وانما عن طبيعة المدركات التى يحتويها هذا العقل ، وخلافا للمنطق والحقيقة ، وبدلا من أن يقم الفلاسفة بأسرهم بتفسير جميع مظاهر نشاطاتنا العقلية من خلال فهمنا لطبيعة عقلنا ، فلقد اخضعوا هذه الطبيعة العقلية لنفس الفروض التعسفية التى اقاموا عليها تفسيرهم لطبيعة مدركاتنا التى يحتويها العقل ... فصوره الفلاسفة التجريبيين طبيعة مادية يمكن اخضاعها للتجربة العلمية ... وان من الممكن تحديد قدرة الذاكرة على استيعاب المدركات الحسية التى تختزن فيها ، وصوره الفلاسفة العقليون طبيعة مجردة كتلك الافكار التى يكونها ويحتويها فى ذاته ...

فجهود الفلاسفة فى هذا الصدد لم تنجح الا فى أن تعزز ضلالنا فحسب وهذا ماسوف أوضحه فيما يلى :

أفكارنا ليست ذات وجود محدد داخل العقل ...

الفضيلة ، فكرة مدركة فى عقلنا دون تحديد واضح ... صفة

اخلاقية مدركة يمكن حملها على شخص بعينه أو عدة اشـخاص أو على جميـع البشر ، ويمكننى أن احملهـا على الـكلاب والقطط والديدان والصراصير ، فمعنى الفضـيلة لم يتحدد فى ذهنى محمولا على شىء او شخص بعينه من الأشياء او الأشـخاص والا لما استطعت ان احملها على ما شئت من الموجودات ... والفضيلة كفكرة عقليـة مدركة لا تشير الى نمط محدد من السلوك لأن من الممكن ان احملها على كل سلوك مهما كان بغيضا منفرا .. فالمدرك العقلى ليس له وجود محدد داخل العقل ،ولولم يكن كذلك لما كان فى مقدورنا أن ندركه بغير ماتحدد فى عقولنا ... لما كان فى مقدورنا أن ندرك معنى الفضيلة بغير ماتحددت فى عقولنا .

فأفكارنا دون تحديد ... دون وجود ثابت ومحدد داخل عقلنا .

تدرك فى معزل عن الفكرة .. فى غير حضورها ...

لكى ندرك بالفعل ،فلا ضرورة لأن يمر هذا الادراك فى وعينـا على هيئة تصورات ذهنية ... فقد نسمع حديثا أو نقـرأ كلاما .. وندركه دون أن تتلاحق فى وعينا تصورات ذهنية معينة ، ونحن بمثل ماندرك بلا تصورات ذهنية تجتاح وعينا حالة الادراك ،فنحن ندرك بلا أفكار تتحدد لنا فى وعينا ــ بمثل ماهى محددة لنا فى عقولنا ــ حالة الادراك .

فلو نظرت لمائدة مكتظة بأصناف عدة من المأكولات فانك بلا شـك سوف تدرك جميع أصناف الطعام التى وضعت عليها بنظرة سريعـة ، لكنك مع ادراكك لجميع هذه الأصناف فأنت لاتدرك عديدا من الأفكار ، فالوعى الانسانى لايمكن توزيعه بين عديدا من الأفكار الماثلة فيـه ، فلو حاولت أن تفهم صنفا من هذه المأكولات اختلط عليك أمره ، فلسـوف تفقد ادراكك للاصناف الاخرى .. اذ لايمكنك أن تتفهم شيئا من الاشياء بحضور اشياء أخرى مفهومة فى وعيك ، فوعينـا العقلى لايتسع لتأمل شىء من الأشياء بينما نحن على وعى لأشياء أخرى الى جانبـه دون ان نتأملها ، ونحن ان كنا حالة ادراكنا لجميع أصناف الطعام دفعة واحدة ، على وعى لعديد من الأفكار الواضحة فى حالة وعى بعينها لكان بامكاننا ان نتأمل صنفا من هذه الأصناف الى جـانب وعينـا للباقى دون تأمل ، وهذا وهم ..

فنحن ندرك عديدا من الأشياء فى نظرة حسية بعينها ، لكننا ــ مع ادراكنا لها ــ لاندركها بحضور معانيها واضحة فى وعينا ، لأننا لانقوى على ادراك عديد من المعانى فى حالة وعى بعينها .. وهكذا ، فكما أن لاضرورة لتصور موضوع الادراك حالة الادراك ... لاضرورة لتصور موضـوع

الادراك الجسى حالة ادراكه ، فلا ضرورة لحضور فكرته واضحة فى وعينا لكى يكون مدركا .

فادراكنا للشىء الخارجى ليس وقفا على حضور تصوره الذهنى أو فكرته المدركة فى وعينا بالضرورة ، وانما نحن ندركه بغير هذه الضرورة فادراكنا كما يتم — فى الحقيقة — بدون تصورات ذهنية تتدافع فى وعينا بالضرورة فهو يتم أيضا بدون حضور ضرورى لمعانينا المدركة واضحة محددة فى وعينا — بمثل ماهى كذلك داخل العقل — فادراك الفكرة بغير حضورها الى وعينا حالة الادراك يوجب انكار وجودها المزعوم داخل عقلنا ... فادراكنا للاشياء الخارجية قد يتم فى وعينا من خلال حضور تصورها البحت ، فهذا التصور البحت لايمكن ان يطرأ فى وعينا دون أن ندركه ، اذ لولم تكن لندركه لما استطعنا تصوره .. فمجرد التصوير الذهنى البحت يعنى الادراك فى معزل عن الفكرة .

لاوجود للفكرة فى عقولنا الا حالما نكن على وعى لها ...

ان كنا نحن الذين الذين تكون افكارنا عن الأشياء الخارجية دون أن يكن لها وجود محدد سابق فى عقولنا ، فنحن اذن قادرون على تكوين نفس هذه الأفكار فى جميع احوال ادراكنا لمداولاتها الخارجية ، دون حاجة بنا لوجودها فى عقلنا لكى ندركها ، فكما كوناها فى عقولنا دون وجود سابق لها فى عقلنا ، فنحن نكونها حالما ندركها دون أن يكن لها الوجود المزعوم عند الفلاسفة العقليون... ولو لم تكن كذلك، لما أمكننا ان ندرك منذ البداية، فلو كنا بحاجة — لكى ندرك الأشياء الخارجية — الى أفكارها المحددة فى عقولنا لما استطعنا ان ندرك شيئا منذ البداية ، حيث لم تكن ثمة أفكار توجد فى عقولنا سابقة على اتصالنا بالعالم الخارجى ... اننا حينما ندرك الموجود الخارجى فى الوقت الحاضر ونكن على وعى لفكرته فاننا فى الحقيقة نكون فكرته فى حينها ، أعنى فى حين وعينا لها مثلما كوناها فى الماضى ، ولا وجود لها فى معزل عن وعينا لها ... اذ مادمنا نحن الذين نكون أفكارنا تجاه الوجود الخارجى فنحن قادرون على تكوينها فى جميع أحوال ادراكنا لها دون أن تكون ثمة ضرورة لتواجدها الدائم فى عقولنا لكى ندرك أونفكر.

ينبغى أن نكون على وعى شامل لجميع افكارنا ...

اننا ندرك أفكارنا فى وعينا ، ولا ندركها فى معزل عن هذا الوعى ، فهى فى معزل عن هذا الوعى ستتواجد بلا ادراك ، وعليه ، فلسوف تتواجد أفكارا غير مدركة فى عقلنا الى جانب أفكارا مدركة داخل وعينا.. وهذا وهم .

ولكى نحتفظ بأفكارنا مدركة فى عقولنا فينبغى أن نظل على وعى لها بأسرها ... على وعى لفكرنا بأسره ، لكننا لانستطيع أن نكن على وعى دائم وشامل لجميع أفكارنا دفعة واحدة ،لذلك ، فينبغى أن يكون وجودها فى عقولنا وجودا غير واعيا ، ومن ثم ، فلن يكون فى مقدورنا أن نعى شيئا خارج هذا الوعى .. فأفكارنا ستتواجد غير معلومة فى عقولنا ووجودها غير المعلوم فى عقولنا يستوى مع عدم وجودها فيه ، وبالتالى فلسوف يمتنع علينا أن نستعين بأفكارنا غير المعلومة فى إدراك أشياء يتطلب ادراكها حضور هذه الأفكار عينها حضورا معلوما .

فالمدرك المحدد فى عقلنا ينبغى لكى يظل مدركا دائما الا يخرج من وعينا الدائم له ، وهذا أمر متعذر علينا ، لأننا لانستطيع أن نكن على وعى دائم وشامل لجميع افكارنا المدركة دفعة واحدة ... فلا وجود لأفكار محددة داخل عقولنا ، لأن وجودها المزعوم فى العقل ينبغى ان يكون معلوما لدينا بأسره ، وهذا وهم ...

امتناع نشاطنا العقلى ...

أن تصور وجود حشد من الأفكار المدركة فى عقلنا لايفسر لنا نشاطاتنا العقلية المختلفة كالتصور والتخيل والتذكر ... فالفلاسفة العقليون لم يستطيعوا أن يقدموا لنا تفسيرا صحيحا لتلك التصورات الذهنية التى تطرأ فى وعينا من خلال نشاطاتنا العقلية المذكورة .

فنحن رغم اقتناعنا ــ وكما اثبتنا ــ بعدم وجود آثار حسية فى عقولنا ــ وهذا مايقرره الفلاسفة العقليون أنفسهم ــ الا انهم لم يقدموا لنا تفسيرا لتلك التصورات الذهنية التى تتلاحق فى وعينا خلال نشاطاتنا العقلية .. فالصور الذهنية التى تتلاحق فى وعينا خلال نشاطاتنا العقلية .. فالصور الذهنية لاتكاد تختفى من وعينا فى أغلب أحوال نشاطنا العقلى ، وخصوصا خلال تصويرنا الخيالى وذكرياتنا فما علة هذه التصويرات الذهنية !! خصوصا ونحن على قناعة تامة برفض طابعها الحسى المزعوم عن الفلاسفة التجريبيين !!

اننا قد لانحتاج ــ فى بعض حالات نشاطنا العقلى ــ لتصورات ذهنية تلاحق نشاطنا العقلى ، الا أن هذا النشاط العقلى ــ فى معظم حالاته ــ يتم بحضور هذه التصورات الذهنية .. فما علة هذه التصورات ! أعنى كيف تتكون فى عقلنا ؟..

ان كان ادراكنا للاشياء الخارجية كافيا بتواجد افكارها فى عقولنا،

الا أن من الصعب علينا أن نتعرف على هذه الأشياء المدركة ونحددها فى الخارج مالم نكن نقوى على تصورها فى وعينا بمثل ماتتراءى لنا حالما تقع حواسنا عليها ، فالفكرة العقلية ان كانت كافية لادراك الموجود الخارجى الا أنها ليست كافية لتحديد هذا الوجود فى الخارج لانه بلا تصور مدرك ... سوف نشاهد الأشياء الخارجية ونحن لاندرى هل هى هذه الأشياء التى ندركها أم لا ؟!!

وهكذا ، فلسوف يتعذر علينا تحديد الأشياء الخارجية التى ندرك افكارها دون تصوراتها الذهنية ... اعنى ، لن نقوى على تحديد الشىء الخارجى الذى ندرك فكرته دون أن نقدر على تصوره فى وعينا .. وكما امتنع علينا ادراكنا للاشياء الخارجية فلسوف تمتنع علينا ذكرياتنا ، فذكرياتنا ندركها فى الغالب على هيئة تصويرات ذهنية وكأنها من قبيل الخبرات الحسية ، فنحن لانذكرها كأفكار مجردة ،وانما تتلاحق فى وعينا وكأنها هى بعينها تلك الخبرة الحسية الماضية ، ونحن وان كنا نستطيع ادراك ذكرياتنا ادراكا عقليا صرفا ــ كأفكار لا كتصويرات ذهنية ــ الا اننا فى الغالب ندركها ادراكا تصويريا .

فان اعتقد الفلاسفة العقليون بوجود آثار حسية للخبرة الماضية فى ذاكرتنا الى جانب أفكارها المدركة فى العقل ــ كما يزعم المذهب الثنائى ــ فلسوف يكون وجود هذه الآثار الحسية فى ذاكرتنا وجود أشباح غير معقولة ، ثم ان الاعتقاد بوجود مستودع (ذاكرة) لحفظ هذه الأشباح الحسية فيه سوف يقضى على الطبيعة المجردة للعقل كما زعموا بها ، ولسوف يمنح امكان استدعاء هذه الأشباح الحسية لأنها ستكون غير معقولة .. وهذا وهم .

ومثلما امتنع علينا ادراكنا وذكرياتنا فلسوف يمتنع علينا تصويرنا الخيالى ، فبالاضافة الى أن هذا التصوير الخيالى لا ينهض على الفكر المجرد ، وانما ينبغى تصوير أفكارنا الخيالية تصويرا ذهنيا ... كيف تسنى لنا تكوين هذه الأفكار الخيالية من خلال فكر واقعى !!؟ فأفكارنا المدركة هى أفكار واقعية ، فكيف أمكننا تصوير أحداث خرافية من خلال ادراكنا لفكر واقعى ، فتصويرنا الخيالى ينبغى أن يكون تصويرا واقعيا خياليا ، لأن الافكار التى كونا منها تصويرنا الخيالى هى أفكار واقعية وليست خرافية ، هل نقل اننا ندرك أفكارا خيالية الى جانب ادراكنا لأفكارنا الواقعية ، لكى يعتمد بالتالى عليها تصويرنا الخيالى !! لكن كيف تسنى لنا تكوين مثل هذه الأفكار فى عقولنا ... اننا نكون أفكارنا ونحن بصدد أحداث واقعية ، لكن ، لم يحدث أن شاهدنا وقائع خرافية حتى

نكون لها أفكارا فى وعينا .. فان كنا نكون افكارنا الخيالية فى معزل عن التجربة الحسية ووقائع العالم الخارجى ، فاننا اذن على قدرة على تكوين أفكارنا فى حينها ولسنا بحاجة لوجود أفكار محددة فى عقلنا لكى نفكر أو نتخيل ..

سوف يحتجب عنا العالم الخارجى ...

لو كان ادراكنا للفكرة وجودا محددا فى عقولنا دون تصورها الذهنى، لما استطعنا من خلال ادراكنا لهذه الفكرة أن ندرك مدلولها الخارجى المحسوس ... لما استطعنا ان ندركها كفكرة ذات وجود خارجى وانما كفكرة ذهنية فحسب ، سوف ندرك الفكرة دون وجودها الخارجى المحسوس ، ندركها دون أن ندرك لها وجودا خارجيا ، فوجودها الخارجى لاوجود له فى العقل كتصور حسى أو ذهنى صرف ، وعليه ، فان ادراكنا لها هو ادراك لفكرة ذهنية وليس ادراكا لفكرة ذات مدلول خارجى محسوس ، ومن ثم فلسوف يحتجب وجودها الخارجى المحسوس عنا حتى مع وقوع حواسنا عليه ، فادراكنا الفكرى سوف يحجب عنا ادراكنا للعالم الخارجى المحسوس وان كان لايحجب عنا ادراكنا الفكرى له ... ستصبح أفكارنا المدركة بلا رؤية خارجية ... سندرك فكرة مادون أن ندرك مدلولها الخارجى المحسوس ، سوف نعى فكرة الاحساس الخارجى دون أن نعى الاحساس نفسه ، وعليه ، فسوف لن نعى الفكرة نفسها بالتالى ، اذ كيف نعى فكرة شىء لانعى وجوده الخارجى ؟ كيف ندرك فكرة شىء خارجى لا ندرك له هذا الوجود ؟ سوف ندرك شيئا لا ندركه ، وهذا وهم . سوف نرى الوجود الخارجى أشباحا وهياكل غامضة دون أن ندرك لها معنى ، سوف يحتجب وجود هذا العالم الخارجى عنا لأن ادراكنا له داخل وعينا سيكون بدون وجوده داخل الوعى نفسه ... بدون احساسنا أو تصورنا له... بدون قدرتنا على تصوره ،وهذا وهم.

ندرك الفكرة مفتتة ...

ـ كما أوضحت ـ ليس ضروريا لكى نكون على وعى لأفكارنا أن تكون معانيها المحددة فى عقلنا حاضرة واضحة فى هذا الوعى ، فالفكرة المدركة لاينبغى أن تكون واضحة المعنى بالضرورة لكى نكون على وعى لها، فانا ادرك عديدا من الأشياء الماثلة أمام حواسى الآن ، ومع ذلك فانا لا ادرك عديدا من المعانى أو الأفكار فى هذه اللحظة بعينها التى أدركت فيها جميع هذه الأشياء .. اذ لو كان هذا ميسورا لى لكان فى مقدورى أن أحدثك عن فكرة ما بينما انا على وعى لغيرها من الأفكار الحاضرة فى وعيى

خلال الحديث وبحيث لو كنت أملك عدة افواه والسنة لتيسر لى ان أحدثك فى عديد من الموضوعات فى آن واحد .. وهذا وهم .

فوعينا ان كان يقوى على ادراك عديد من الأشياء فى حالة من الادراك بعينها فهو غير قادر على ادراك عديد من الأفكار فى هذه الحالة بعينها من الادراك . وبالتالى فلو كان وجود الأفكار فى عقولنا - كما يزعم الفلاسفة العقليون - ذا معنى محدد واضح ، لامتنع علينا حال وعينا لها أن نعيها بلا معانيها هذه المحددة فى عقولنا ، وعليه ، فلسوف تستحيل علينا المواقف الادراكية ا لتى نألفها .. ندرك حالات من المدركات المفتتة ، فلا نقدر على ادراك فكرة واحدة بعينها ، لانقدر مثلا على ادراك الكتابة لأنها تجمع فىوعيى بين ادراكى لفكرة القلم وفكرة الكراسة ، ولكىأدركهما معا -لكى أدركفكرة الكتابة - فيجب أن تحضرا بكامل معنيهما الواضحين فى عقلى ، فيجتمع لدى معنيين لفكرة واحدة فى حالة من الادراك بعينها، فيمتنع ادراكى لهذه الفكرة .. وهذا وهم .

سوف يمتنع علينا ادراك فكرة واحدة بعينها لأن ادراكها يتطلب الجمع بين عديد من المعانى فى حالةمن الوعى بعينها ، فيؤدى اجتماع هذه المعانى معا الى الوعى بهذه الفكرة ... الى ادراكها .. فقد اسألك عن معنى فكرة الدولة ، فلكى تجيبنى فلسوف تتعرض للحديث عن معانى عدة تتصل بهذه الفكرة .. تتحدث عنالنظام والواجبات والحقوق ..الخ فلو كانت جميع هذه المعانى التى يتطلبها الايضاح ستحضر بكامل وضوحها فى وعيك خلال ادراكك لفكرة الدولة ، فلسوف يتعذر عليك ادراكها لأن من المتعذر علينا توزيع وعينا بين عديد من المعانى الماثلة فيه فوعينا لأفكارنا لاينبغى أن يكون وعيا لمعانيها المحددة فى أذهاننا وبالتالى فنحن لانحتاج لكى ندرك افكارنا أن نكون على وعى لكامل معانيها المحددة فى اذهاننا ، وعليه ، فنحن ندرك أفكارنا فى معزل عن وجودها فى عقلنا ، نحن بادراكنا لأفكارنا نفصل بينادراكنا لهذه الأفكار وبينمعانيها الموجودة فى عقولنا ، فندركها فى معزل عن ادراكها المحدد فى عقلنا ، وهذاوهم.

ليس ثمة مدركات فينا جاهزة ، وبالتالى ، فلا حديث عنطبيعة لهذه المدركات أو طبيعة للمعرفة ..

الخيـــال

عجز عن تفسير التصورات الذهنية ...

الفلاسفة العقليون — وخصوصا المثاليون الألمان— يرفضون الوجود الخارجي المحسوس .. يرفضونه كاحساس ويقيمونه فى عقلنـــا فكرا خالصا فحسب ، لقد رفضه الفيلسوف الفرنسي ديكارت كما رفضـــه الفلاسفة المثاليون الألمان فخته وشلنج وهيجل والحق أن الفلاســـفة العقليون يتفاوتون فى نظرتهم لهذا الوجود الخارجي المحســـوس .. فى رفضهم له ،فبينما نجد ديكارت يرفض الوجه الكيفى لهذا العالم الخارجى نجد أن الفلاسفة الألمان قد ساروا شوطا ابعد فى الرفض من هذا الشوط الذى سار فيه ديكارت ، فقد رفضوا المادة الخارجية بأسرها بوجهيهـا الكيفى والكمى وأقاموا الوجود فى عقلنا على الفكر الصرف ، ولم يستبقوا منه شيئا فى الخارج مقابل وجوده العقلى .

اما فلسفة سبينوزا فى الجوهر وفلسفة ليبنتز فى المونار الروحية، فكلتاهما لم تكونا لتفترقا عن هذا الاتجاه فى روحهما العامة ، فالفكر هو الطبيعة الطابعة للجوهر عند اسبينوزا ، هو عين الجوهر .. هو الحقيقة أما الاحساس فهو مظهرا لهذه الحقيقة ، اما الجوهر الروحى عنـــد ليبنز فقد أقام عليه الوجود بأسره .. هو الحقيقة ، أما الوجود الخارجى فهو عرض لهذه الحقيقة .

لكن كيف تسنى لهؤلاء الفلاسفة أن يدركوا الوجـــود الخارجى ان لم يكن وجودا حقيقيا بجانب ذاتنا العاقلة ؟ كيف تسنى لنا أن ندرك وأن يكون لنا فكر دون أن يكون لفكرنا مدلولا خارجيا حقيقيا ؟..

يرى المفرطون منهم أننا ندرك أفكارنا بصدد وجود وهمى ، لكن أن كنا ندرك أفكارنا لوجودا وهميا زائفا فلماذا لم تكن أفكارنا المدركة وهمية وزائفة بدورها !! لماذا نسبغ على فكرنا القدسية ونسبغ على موضـــوع فكرنا الزيف والوهم ؟

وأليست ذاتنا مهلهلة وغبية تلك التى تهتم بادراك عالم زائف كهذا العالم ؟ إذا كان هذا العالم وهميا فلماذا لا نرفض ادراكنا له ؟ لـــماذا لا نعلق ادراكنا لهذا العالم فنغدوا بلا ادراك !! وان كنا ندرك أفكارنا عن هـــذا العالم الوهمى فما علة وجود تصوراتنا الذهنية التى تملأ وعينـــا خلال نشاطاتنا العقلية المختلفة ؟

أن من ينكر شيئا لايستطيع ان يقدم دليلا على وجوده الخارجى، لكن ماعلة وجوده الذهنى ؟ ماعلة وجود هذا الفكر فى عقولنا ؟ .. وماعلة وجود هذا الكيف المدرك فينا ان لم يكن لهذا الكيف وجودا خارجيا ؟..

من بين التفسيرات التى وضعها الفلاسفة العقليون لمدركاتنا الكيفية انها مجرد انفعالات حسية .. مجرد آثار لانفعالنا بالمحسوس دون أن يكون لهذه الآثار طابع المدركات العقلية .. آثارا انفعاليــة وليست اثارا مدركة .لكن الانفعال ليس تصويرا ذهنيا فى ذاته وانماهو حالة وجدانية وحالات الوجدان قد تصاحبها تصورات عقلية وقد لاتصاحبها . فقــد أشعر بالسرور دونما موقف خارجى أو ذهنى معين،وقد أشعر به من خلال احســـاسى لمشـــهد خارجى او ذهنى من الذاكرة أو المخيـــلة ، ولكن دون ضرورة لاننى أستطيع ان أكون على وعى لنفس المشهد الذهنى دون أن أكون على احساسى لنفس الحالة الوجدانية التى صاحبته، وبالتالى، فلا يمكن تبرير وجود تمثلاتنا الذهنية على انها انفعالات صرفه .

قد يرى الفلاسفة العقليون فى محاولاتهم لتفسير وجود تصـــوراتنا العقلية ، على انها مجرد رسومات اشبه بالرسومات الهندسـية ، لكن ماعلة وجود الكيف فى مثل هذه الرسومات ؟ كيف تفسر ادراكنا للالوان مثلا ؟ وكيف تفسر ذكرياتنا التى نراها فى وعينا وكانها بعينها تلك الأحداث التى خبرناها فى الماضى ، فهل نحن حين ندرك ونتذكر أو نتخيل نستحضر خطوطا واشكالا هندسية فى وعينا .

فى الحق أن الفلاسفة العقليون عاجزون تماما عن تفسير تصوراتنا الذهنية التى تجتاح وعينا من حين لآخر خلال نشاطاتنا العقلية ، هــذا العجز يعود لمحاولاتهم الطائشة لاخضاع جميع مظاهر حياتنا العـــاقلة لفروضهم النظرية وهم ــ كالفلاســـفة التجريبيون ــ فلسوف تغــدو محاولاتهم بدون طائل لانها تنطلق من مقدمات ضالة ، وقد راود البعض من الفلاسفة البحث عن مقدمات أخرى بديلة كما فعل الفيلسوف الألمــانى كانط ، فجمع فى نظريته بين التصورات التجريبية والعقلية معا ، ولكن محاولته لم تكن اوفر حظا من المحاولات التى سبقتها فجـــاءت بهزال جـديد .

فالفلاسفة بأسرهم جهلوا حقيقـــة هامة ، وهى ان عقلنا لا يخضـــع للفروض أو البديهيات ... عقلنا ليس مسألة رياضية معقدة .

لا وجود لفكر خرافى يعتمد عليه تصويرنا الخيالى ...

ــ كما أوضحت ــ فان أحدا من الفلاسفة العقليون مثل ديكارت

وهيجل وحتى كانط لم يضع لنا تفسيرا لتصوراتنا الخيالية التى تكونها فى وعينا من حين لآخر ، ومع ذلك ، فلسوف أتعقب تفكيرهم واثبت أنه لايصلح لتفسير هذه الظاهرة العقلية واعنى بها ظاهرة التصوير الخيالى، فالفكر هو مصدر كل نشاط عقلى عند الفلاسـفة العقليون ، والفكر المدرك الذى يقوم عليه تصويرنا الواقعى هو عينه الذى يقوم عليه تصويرنا الخيالى ، فنحن قد كونا أفكارنا الواقعية من خلال وجودنا فى واقع خارجى ، فلا يعقل أن يكون لنا فكرا خياليا كوناه من خلال وجودنا فى عالم خيالى ، ان التجربة الحسية الخيالية لا وجود لها . وكما لا يعقل أن يكون لنا فكرا خياليا جاهزا فى عقولنا الى جانب فكرنا الواقعى ، فلا يعقل كذلك أن تكون لنا ملكة خاصة بالتصوير الخيالى الى جانب ملكتنا على التصوير الواقعى ، فملكتنا على التصوير هى واحدة فى جميع حالات التصوير العقلى ، والا فما الذى يدرينى اننى استخدم هذه الملكة أو تلك فى هذا التصوير المائل فى وعيى الان ؟ ولكان فى مقدورى ان اقوم بتصوير عقلى مزدوج فى آن واحد .. خياليا وواقعيا فى حالة من الوعى بعينهـا — مادمت أملك ملكتين على التصوير العقلى — وهذا وهم .

وقد يقال ، اننا نستخدم نفس مدركاتنا الواقعية ونفس ملكتناعلى التصوير الواقعى فىتصويراتنا الخيالية ؟؟ لكن ، كيفجاز لنا أنستخدم ادراكنا الواقعى فى تصويراتنا الخيلية !! أعنى ، كيف ساغ لنا ان نقيم تكوينا ذهنيا خرافيا باستخدام فكر واقعى !؟

كيف ندرك فكرا واقعيا ونملك القدرة على ادراكه على نحو خيالى؟! واذا كانت ملكتنا على التصوير الخيالى هى بعينها ملكتنا على التصـوير الواقعى ، فان تصويراتنا الواقعية لها نفس طبيعة تصويراتنا الخيالية، ولكانت هذه التصويرات الواقعية تكوينات ذاتية صرفة مادامت تتم بنفس ملكتنا على التصوير الخيالى وفى هذا القول ، فنحن ننكر امكان وجـود تصويرات واقعية أو خيالية ثابتة ومحددة فى عقولنا ، اذ مادامت ملكتنا على التصوير العقلى بأسره ملكة ذاتية فى معزل عن التجربة الحسـية ومعطياتها ، فنحن اذن نكون تصيراتنا العقلية فى حينها دون اعتماد على معطيات حسية محددة داخل عقولنا ، لأن من الوهم أن نعتقد بوجـود تصويرات حسية خرافية يعتمد عليها تصويرنا الخيالى الى جانب وجود آثار حسية واقعية يعتمد عليها تصويرنا الواقعى ، اذ كيف تسنى لنـا تكوين هذه التصويرات الحسية الخرافية دون تجربة خرافيـة ، لكى نستبقيها بالتالى فى اذهاننا ، أضف الى ذلك أن تصويراتنا الخياليـة ليست تصويرات مكررة لاحساسا خرافيا محددا فى عقولنـا ، أعنى ،

اننا حين نقوم بتصويرنا الخيالى فاننا لانستدعى خيالات مصورة فىعقولنا وانما تكون هذه التصويرات فى حينه ..

وفى جميع الاحوال، فلا التجربة الحسية .. ولاالفكر المجرد قادرا على تفسير تصويرنا الخيالى .

العقـــل

ادراك باجتماع ملكتين عقليتين معا ...

ان كانت تصوراتنا العقلية تأخذ طابعا حسينا فى عقولنا كما يزعم الفلاسفة التجريبيون ، واذا كان ادراك العلاقات القائمة بين هذه التصورات الحسية تأخذ طابعا غير ذاك الطابع الحسى الذى يأخذه ادراكنا العقـــلى لهذه المدركات الحسية كما يزعم الفلاسفة العقليون ... طابع الافـــكار المجردة ، فان ادراكنا لوقائع العالم الخارجى لايتســـم دون ان تتآزر فى عقلنا ـ حالة الادراك ـ ملكتين عقليتين فى آن واحد ... فادراكنااللاحساس الخارجى يتم بملكتنا على التصور الحسى .. بملكه التصور ، لكن ادراكنـــا للعلاقات القائمة بين محسوساتنا المدركة ـ وهى علاقات غير محسوسة ـ يتم بملكة عقلية اخرى غير ملكة التصور الحسى ، اعنى بافراد ملكة خاصة لادراك العلاقات المجردة الى جانب ملكتنا على التصور الحسى ، واعنى بها ملكة الفكر .

فادراكنا العقلى ـ اذن ـ هو تجريبى وعقلى فى آن واحد ، والفلاسفة العقليون لاينكرون ادراكنا التجريبى فى الحقيقة ، ولكنهم يصرون على اننا ندرك افكارنا ادراكا عقليا ـ وهى تلك العلاقات القائمة بين المحســوسات المدركة .. لكن ، اليس ادراك الأثر الحسى ـفىحقيقتهـ هو ادراك لمجموعة من العلاقات والنسب القائمة داخل الاحساس نفسه ـ داخل الأثر الحسى!

فالمدرك المحسوس يخضع فى وجوده الخارجى لمجموعة من النسب التى تكون هيئته الخارجية المحسوسة ، فتجعله مميزا عن غيره من باقى المحسوسات ، فالعلاقات المدركة موجودة اذن داخل الاحساس الواحـــد مثلما هى موجودة بين الاحساسات ، وعليــه ، فكيف نعزو ادراكنا للأثر الحسى لملكتنا على التصور ، بينما نعزو ادراكنا للعلاقات ـ غير المحسوسة ـ القائمة بين الآثار الحسية لملكتنا على الفـــكر !! أليست ملكة ادراك العلاقات القائمة بين المحسـوسات هى بعينها ملكة ادراك العلاقات القائمة فى المحسوس الواحد !! لم قلنا ـ اذن ـ بادراك تجريبى الى جانب ادراكنا العقلى !! لم قلنا بملكات عقليتان تتآزران فى ادراكنا للاشياء الخارجية ؟ ولم قلنا بادراك عقلى الى جانب ادراكنا التجريبى اذا كان ممكنا لملكتنا على التصور الحسى ان نستوعب الاحساس المدرك بكامل علاقاته ؟ فاذا كان ممكنا لهذه الملكة العقلية ـ ملكة التصور ـ ان تستوعب هذا الاحســـاس بكامل علاقاته القائمة فيه ، فان من الممكن لهذه الملكة بعينها ان تســتوعب الاحساسات بعلاقاتها التى تربط بينها دون حاجة لافراد ملكة خاصــــة لادراك هذه العلاقات المجردة ، ونعنى بها ملكة الفكر .

واضيف ، بأن ادراكنا للفكرة القائمة بين المحسوسات ـ بملكة الفكر ـ ينبغي الا يكون ادراكا لها كذلك .. اعني بين احساسات ، لان موضوع ادراك ملكتنا المفكرة غير موضوع ادراك ملكتنا على التصور الحسي ، فما ندركه بهذه لا ندركه بتلك ، وبالتالي ، فلكي ندرك الفكرة فلسوف ندركها دون أن ندرك تلك الاحساسات التي ترتبط بها ... ندركها دون أن ندرك وجودها المحسوس لأن ادراك هذا الوجود المحسوس يتم بملكة اخرى غير ملكة الفكر ، وأعنى بها ملكة التصور الحسي .. وبالمثل ، فلكي ندرك وجودها المحسوس ، فلسوف ندركه احساسات مفتتة دون فكرة تجمع بينهما لأن ادراك هذه الفكرة يتم بملكة أخرى غير ملكة التصور الحسيي ، واعنى بها ملكة الفكر .

وهكذا ، فان الاعتقاد بأن ادراكنا العقلي يتم باجتماع عمل ملكتين عقليتين فى حالة ادراك بعينها هو اعتقاد ضال .

امتناع النشاط العقلي ..

ان الاعتقاد باننا ندرك افكارنا بملكتنا على ادراك هذه الافكار ـ بملكة الفكر ـ يجعل امكان قيام نشاط عقلي فينا امرا مستحيلا .. ان الاعتقاد بوجود ملكة للفكر فى عقلنا لادراك العلاقات القائمة بين مدركاتنا الحسية ، يعنى ، ان بغير الامكان لقدرة عقلية أخرى غير قدرتنا على التفكير ان تقوم بادراك هذه العلاقات المجردة ... يعنى ، ان بغير الامكان لملكة التصوير الخيالي فينا ان تقوى على اكثر من تأمل احساسات خالصة . لا رابطةلها بغيرها من الاحساسات الأخرى ، يصبح تصويرنا الخيالي مجرد تصور لاحساسات مفتتة ، وبالتالي فلا يكون فى مقدورنا ان نصور حدثا أو واقعة ذهنية كاملة ، لأن وقائع الذهن لاتعتمد على الاحساسات فحسب ، وانما على العلاقات التى ترتبط بها هذه الاحساسات ايضا داخل الواقعة الذهنية المصورة ، فملكة الفكر ـ ملكة ادراك العلاقات ـ تمنع أن يكون فى مقدورنا ان ندرك هذه العلاقات بطريق آخر غيرها ... سوف يتعذر علينا تصوير خيالاتنا بافكار لاتدرك بطريق المخيلة .

وكما استحال تصويرنا الخيالي بوجود ملكة خاصة لادراك افكارنا فلسوف تتعذر علينا ذكرياتنا وخبراتنا الماضية ، لأن هذه الخبراتالماضية سوف تتفكك وقائعها حالما تقبع فى الذاكرة ، فالروابط التى شكلتها كوقائع أو كخبرات سوف يستبقيها العقل حالما تتجه الخبرة الحسية نحو الذاكرة .. سوف تفقد خبراتنا روابطها فتغدوا احساسات مفتتة حالما تتجه هذه الخبرات صوب الذاكرة ، فتصبح مجرد احساسات مفردة مرصوصة فى ذاكرتنا دون ان يكون لمجموعها فكرة أو معنى ، أويكون بعضها قد ارتبط بالبعض الأخر داخل واقعة خبرناها فى الماضى ... ولسوف يتعذر علينا استدعاءها بالتالي .. وهذا وهم واضح .

نقـد ديكارت

رفض المعانى الفطرية

وجود المعانى الفطرية وعدم وجودها سواء ...

ان كانت لدينا معانى فطرية ، فينبغى ان تكون على وعى لها وعـــلى قدرة لتصور مدلولاتها الخارجية المحسوسة منذ الفطرة ، لاننا ان لم نكن نقدر على ذلك فلسوف يكون وجود هذه المعانى فى عقلنا غير كاف لتحقيق الادراك ، اعنى ، لايعد الفكر مصدر ادراكنا ، ولسوف يصبح وجود هذه الافكار فى عقلنا أو عدم وجودها سواء ما دام وجودها لايوفر لنا الادراك .

فالادراك عندديكارت والفلاسفةالعقليون ينهض على الفكر المحض، لكننا لانرى ادراكا بحضور هذه الافكار المزعومة فى عقولنا فطريا ، ولو كان لنا أن ندرك افكارنا الفطرية فى معزل عن تجربة ادراكها الحسية ، لكنا فى غنى عن هذه التجربة لكى ندرك ، ولكان ادراكنا للاشياء الخارجية يتم بطريق التعرف ، نتعرف عليها بعد ان ادراكناها فى معزل عنها ... سوف لن نجد عناء فى التعرف على الاشياء وادراكها دون تعلم .

والاهم من هذا ، اننا لن نكن بحاجة لهذه التصورات الذهنية التى تصاحب نشاطاتنا العقلية من حين لآخر ، اعنى ، لن نكن بحاجة لدخول تصوراتنا الذهنية فى جميع نشاطاتنا العقلية المختلفة ، وعليه ، فلسوف تمتنع علينا ذكرياتنا وتصوراتنا الخيالية على وجه الخصوص لأن هـــذه الذكريات والخيالات لاتتم ــ فى الغالب ــ بلا تصورات ذهنية ... ونحن لانستطيع ان نرفض تصوراتنا للاشياء الخارجية ان نحن كنا بغير حاجة لها .. لقد رفض ديكارت الكيف الخارجى المحسوس ، لكنه لم يقوى على رفض تصوره الذهنى له ان لم يكن احساسه له ..

وقد لاتوجـد لمعانينا المدركة مدلولات حســية محددة فى الخارج كالمعانى الخليقة مثلا ، لذلك ، فنحن ان كنا نفطر على هذه المعانى ، لتكون بما يعرف بضميرنا الاخلاقى ــ كما اعتقد بعض الفلاســفة الاخلاقيون الاسكتلنديون فى القرن الثامن عشر ــ فينبغى أن نكون على وعى لها منذ فطرتنا عليها ، لأن التجربة الخارجية سوف لن تزودنا بتصورات حسية محددة لها كباقى الاشياء الخارجية ، فهذه المعانى لاوجود لها حســيا فى الخارج ، وبالتالى فلا يمكن احساسها ، ولذلك ، فان وجودها المزعوم فى عقلنا ينبغى أن يكون معلوما لدينا منذ الفطرة خصوصا وأن التجربة الحسية الخارجية سوف لن تفيدنا بشىء فى ادراكها كأن تعطينا احساسات لهذه المعانى ، لانها ــ كما أوضحت ــ بلا وجود حسى خارجى محدد .

والخلاصة ، ان كانت شروط ادراكنا العقلى تتحقق لنا قبليا فى معزل عن التجربة الخارجية ، ينبغى ان تكون فى غنى عن هذه التجربة فى جميع احوال هذا الادراك ، واذا كانت جميع احوال ادراكنا العقلى تحقق لنا وعيا خارجيا لمدركاتنا عن طريق تصورنا الذهنى لها ، فلماذا لايحقق لنا ادراكنا الفطرى نفس هـــذا الوعى الخارجى لمدركاتنا فنصورها فى اذهاننا بمثل مانتصورها فى حالات ادراكنا الحقيقى ؟ ..

نتائج غريبة فى المجالات الايستمولوجية والميتافيزيقية والاخلاقية :

ان وجود معان فينا فى شكل بث فطرى ، يعنى ، ان وجودها يعود لاسباب غيبية مجهولة ، مما يؤدى الى نتائج غاية فى الغرابة فى المجالات ـ الايستمولوجية (نظرية المعرفة) والميتافيزيقية والاخلاقية ، فابحاثنا فى نظرية المعرفة ستغدو بلا طائل ، وغير ذات جدوى اذا ما واجهتنا مثل تلك المزاعم الديكارتية ... اذ سوف تتصل ابحاثنا الايستمولوجية بابحاث ميتافيزيقية ونحن مازلنا فى مستهل بحثنا الايســـتمولوجى ؟ كيف امكن للاله المجهول ان يزودنا بمعانينا الفطرية !! وما هى طبيعة صلتنا به ؟ ثم ما الذى يمنع من ان تكون فى كل حالة من حالات ادراكنا العقلى نتلقى عونا الهيا ، كما ذهب الى ذلك بعض فلاسفة اللاهوت المسيحى فى القرون الوسطى الأوروبية ، بحيث يمتنع علينا الادراك حالة انطفاء هـــذا العون الالهى ؟؟ . وبحيث يمكن اعتبار الغباء أو الجنون مظهرا لهذا الانطفـــاء الكامل ؟ .. سوف نغدو على صلة مباشرة بالله مثلما نحن على نفس الصلة مع العالم الخارجى المحسوس . لكننا ان كنا نتلقى عونا الهيا حقيقا فى ادراكنا للاشياء الخارجية ، فان انطفاء هـــذا العون لايوقعنا فى الغباء أو الجنون ... سوف لن ندرك ــ فى هذه الحالة ــ موضوع ادراكنا فحسب، لكننا لن نفقد ادراكنا لافكارنا السابقة لن نفقد وعينا لانفسنا كموجودات عاقلة ، ومع ذلك ، فان مثل هذه الحالات التى نتوقف فيها عن الادراك لاوجود لها مطلقا .

وفى ميدان الاخلاق سوف يتحتم علينا أن ننسب جميع أفعالنا لله ، فالفعل أو السلوك الانسانى لايحدث دون تصور سابق على حدوثه أو فكره ينهض عليها ، وما دام الله مصدر مافينا من افكار .. مادامت افكارنا مظهرا لعون الهى ، فان افعالنا بالتالى سوف تعود لله نفسه ، فلا نعد نســـأل بالتالى أو نحاسب على افعالنا .. وهذا وهم .

ندرك الاشياء ونحن على علم سابق بقدرتنا على ادراكها :

العقل وفق فكرة الفطرة الديكارتية مرتب قبليا لادراك هذا العالم دون

غيره من العوالم الاخرى الممكنة ، فلو نحن عشنا فى عالم آخر غير هذا العالم لما استطعنا أن ندركه ، ان فكرة الفطرة تقودنا لادراك هذا العالم فحسب دون غيره من العوالم الممكنة ، فعقلنا موجها لادراك هذا العالم الذى نعيش فيه دون غيره من العوالم الاخرى الممكنة الوجود ، فجهلنا بغير هذا العالم الموجود لايعنى بالضرورة ان ليس ثمة عوالم اخرى غير هذا العالم الموجود .. فان كان عقلنا مرتب قبليا ـ بما وضع فيه من معان فطرية ـ لادراك هذا العالم الموجود ، فان هذا العقل بغير قادر على ادراك خلافه ... فلا يصبح عقلنا ذاك المطلق الذى نشده خصوصا أولئك الفلاسفة المثاليون الألمان .

فان لم يكن ثمة وجود لغير هذا العالم الموجود ، وان لم يكن ممكنا لعقلنا بالتالى أن يدرك خلاف ما هو موجود ، فلسوف يتحتم أن تكون صلتنا بهذا العالم الموجود معلوما لدينا قبل وجودنا فيه ... يجب ان نكون على علم بقدرتنا على ادراكه قبل ادراكه بالفعل ، لاننا جئنا لنحياه ولندركه هو بعينه دون غيره من العوالم الممكنة ، ولأن عقلنا مرتب لادراكه هو فحسب ، خصوصا بما زود من هذه المعانى الفطرية المزعومة ، لكن لانتساءل !! ماذا يحدث لو اخطأت المقادير فقذفتنا فى عالم آخر لانعلمه ؟ سوف نكون عاجزون تماما عن الادراك .

اذن ، لكى ندرك الاشياء الخارجية ، فيجب ان نكون على علم سابق بقدرتنا على ادراكها قبل ان ندركها بالفعل ، وهذا وهم واضح ، فادراكنا لهذه الاشياء لايسبقه وعيا لنا بقدرتنا على ادراكها ، فحينما ادرك هذا الشىء الذى امامى الآن وليكن هذا الكتاب ، فانا ادركه دون ان اكن على علم سابق بقدرتى على ادراكه ... والوجود باسره لم تكن لندركه ونحن على علم سابق بقدرتنا على ادراكه .. اننا حين ندرك فنحن لا نلزم انفسنا بالسؤال عن قدرتنا على ادراك موضوع هذا الادراك ، ولو كنا كذلك لكان فى مقدورنا ان نرفض ادراكنا للاشياء الخارجية ... نرفض تصورنا لها أو فكرتنا عنها ... وهذا وهم باطل .

تجارب عشناها قبل وجودنا :

ومن هذه الحجج الطريفة التى ادفع بها هذا الزعم الديكارتى الضال ، انه ينبغى لهذه المعانى الفطرية ان يكون تواجدها فى عقلنا قد ارتبط بتجربة غيبية عشناها منذ الأزل .. ان يكون تواجدها الفطرى فى عقلنا قد ارتبط بتجربة ينبغى الكشف عنها بطريق التذكر ، ينبغى خصوصا لاولئك الذين يعتقدون بازلية الروح أن يبحثوا عن تلك التجارب التى مرت بها منذ الازل فخلقت فيها هذه المعانى الفطرية ... فالمعانى والافكار لاتقبل الوضع لانها مجردة ... ليست محددة ، ولكى تتواجد هذه المعانى فى عقولنا فينبغى أن

يكون وجودها قد ارتبط فى عقلنا من خلال تجارب غيبية ينبغى الكشف عنها .. كتلك التجارب التى كشفت عنها الكتب السماوية فى عرضها لسبب وجود الانسان فى هذا العالم ، ولاصل فكرة الشر ، واعنى بهذه التجارب تجربة آدم وحواء فى الجنة ، وتلك التجربة التى مر بها ابليس قبل مجيئه الى عالمنا هذا لكى يضللنا ، فابليس عرف طريقة للشر فى هذه الدنيا بعد ان عرفه فى تجربة ازلية سابقة حين عصى الله وتمرد على السجود لآدم اسوة بزملائه من الملائكة .

ينبغى اذن أن نكشف عن تجاربنا الازلية التى خلقت فى عقولنا معانينا الفطرية عن طريق التذكر ، تماما كما ذهب افلاطون حين زعم بأن النفس فى هذه الدنيا تتذكر حياتها السابقة فى عالم المثل ، ففكرة ديكارت فى المعانى الفطرية تقودنا الى نفس النتيجة التى قال بها افلاطون .

وهكذا ، فلكى نعتقد بوجود معان فطرية فينا ، ينبغى أن نبحث فى ذاكرتنا عن تجارب غيبية سابقة على وجودنا ، تم فيها لنا ادراك هذه المعانى المزعومة .. تجارب عشناها قبل أن نعيش بالفعل .. وهذا وهم .

ومن الواضح هنا ، ان ادراكنا لمعانينا الفطرية سوف يأخذ طابعا حسيا فى عقولنا لانه تم من خلال تجارب حسية ازلية ولم يودعه احدا فينا ، ولأن البحث فى ذاكرتنا عن هذه التجارب هو بحثا لمحسوسات قابعة فيها منذ الازل .. خلافا للفكر الديكارتى .

واضيف ، بأن ارتباط وجود هذه المعانى فى عقولنا من خلال تجارب غيبية يعنى أن ثمة عوالم اخرى حسية غير عالمنا هذا وعلى غراره .. وان لم يكن لهذه العوالم وجود ، فلا يبقى الا ان تكون تجاربنا الازلية قد جرت على نحو عالمنا هذا بالتأكيد .. وهذا أمرا مشكوكا فيه .

تصور موجودات مختلفة عما هو موجود فعلا :

لو كان لنا ادراكا فطريا كما يزعم ديكارت لكان فى استطاعتنا أن نتمثل موجودات مختلفة عما هو موجود فعلا ، اعنى ، موجودات ليس من الضرورى أن تكون على غرار ما هو موجود فعلا فى الخارج ... لكان من الممكن أن نصور بما نملك من معان وأفكار فطرية موجودات أخرى ممكنة لها نفس المقولات الواقعية دون أن تكون لها نفس الهيئة الخارجية ، أو يكون لها وجودا حقيقا ... لكان ممكنا لنا ان نصور مدركاتنا الفكرية بغير ما هى مصورة فعلا فى الخارج أو بغير ما يصورها لنا ادراكنا الواقعى .. لكان من غير الضرورى ان تتفق تصوراتنا الذهنية للموجودات الخارجية مع احساسنا لوجودها الخارجى ، وان كانتا تتفقان فى فكرتهما المدركة .

ان وجود المعنى الفطرى فى عقلى سوف ييسر لى فقط ادراك الاشياء الخارجية من حيث هى افـــكار ، ولا ييسر لى ادراكهـــا من حيث هى احساسات ؟ وبالتالى ، فليس ضروريا ان يتوافق تصورى الذهنى لها فى غياب احساسها الخارجى مع احساسها نفسه كما هو قائم فى الخارج .

لسنا بحاجة لمعانى اخرى غير تلك التى فطرنا عليها :

ان اعتماد ادراكنا باسره على مازود به عقلنا فطريا من معان وافكار ، يعنى ، اننا لسنا بحاجة لمعان اخرى الى جانب تلك المعـــانى الفطرية التى ينهض عليها ادراكنا العقلى .

فان كان وجود هذه المعانى الفطرية يمنع من ادراك معان أخرى الى جانبها ، فلسوف يكون ادراكنا لهذه المعانى الجديدة على غرار تلك المعانى التى فطرنا عليها بالضرورة ، لأن ادراكنا العقلى لايجرى على اكثر من نحو واحد من حيث هو ادراك ، وبالتالى ، ينبغى أن نظل على صلة روحيـــة بتلك القوى الغيبية التى اودعت فى عقلنا هذه المعانى الفطرية ، لكى تمدنا بمعان أخرى الى جانب الأولى حتى تعيننا على الادراك ، اذ مادمنا نعتمد فى ادراكنا على هذه الجهة الغيبية فينبغى ان نعتمد عليها باســـــتمرار كمصدر لفكرنا ومعانينا المدركة ، بحيث يصبح عقلنا فى هذا الحال كشخص اعتاد أن يطفىء ظمأه من قطرات المطر المتساقط ثم مالبث فاغرافاه الى أعلى كلما عاجله الظمأ ... وهذا وهم .. فالقوى الغيبية التى اودعت فينـــا معانينا الفطرية يمكنها ـ ان لم تكن هـــذه المعانى كافية لجميع احـوال ادراكنا العقلى ـ أن تودع فينا جميع المعانى اللازمة لتفهم الوجود الخارجى باسره ، فلا نعد بالتالى بحاجة لعون متصل منها .

وان كانت التجربة الحسية هى مصدر معانينا الجديدة ، فلســوف يكون ادراكنا فطريا وتجريبيا فى آن واحد ، وهذا مخالف لنظرية ديكارت ، فى المعانى الفطرية ولفلسفته باسرها ، فمعانينا الفطرية تمنعنا من ادراك معان اخرى الى جانبها بطريق التجربة الحسية ، بل تمنع ادراك معان أخرى الى جانبها اطلاقا ، سواء بطريق الغيب المتصل او بطريق التجربة الحسية .

مدركات بلا ادراك :

ان كان وجود المعانى الفطرية فينا بالقوة ـ لا بالفعل ـ بالمفهـــوم الارسطى ، وان كان احساسنا لمدلولاتها الخارجية سوف يوقظ فينا ادراكنا لها ، فاننا بغير وقوع حواسنا على هذه المدلولات الحسية الخارجية ... بغير احساسنا أو تصورنا الذهنى لهذا المدلول الخارجى ، فلن نستطيع أن نفهم معانينا المزعومة .. ستظل مجرد استعداد غارق فى النوم ، ولــكى

ندركها فينبغى ان يتهيأ لنا تصور احساساتها الخارجية والتعرف عليها ، ونحن بدون ان نتصور هذه الاحساسات فسوف لن يتيسر لنا ادراك معانيها الفطرية .

ينبغى اذن ان تقع حواسنا على المحسوسات الخارجية لكى يوقظ احساسنا لها ادراكنا لمعانيها الفطرية ، فيتوافق بالتالى هذا الاحساس مع هذا المعنى المدرك بالفطرة ... يتوافق احساسنا له مع وجود معنى له فى وعينا سابق على هذا الاحساس ، فندركه بالاتفاق .. بالصدفه ، لقد وافق حضوره المبهم ان يكون له معنى مدرك فى عقلنا فادركناه بطريق التعرف أو الاتفاق .. باتفاق وجود معنى فطرى له فى وعينا .

لكن ، قد لايتوافر لنا احساس ما بينما له معنى فطريا فى عقلنا ، وعليه ، فسوف يظل هذا المعنى الفطرى دون ادراك الى ان يتسر لحواسنا الوقوع على احساسه المفقود .

وقد لايتوافر لدينا معنى فطريا لاحساس ما ، هنا ، سوف يستغلق علينا ادراك هذا الاحساس الى حين يأتينا عونا غيبيا على أدراكه ، فيظل الى ذاك الحين المرتقب فى وعينا دون ادراك ... وهذا وهم وهكذا ، فنحن فى كل حالة ادراك فى حاجة الى صدفة يتوافق فيها حضور الاحساس الخارجى مع حضور معناه الفطرى فى وعينا ، بحيث لو لم يتوافر لنا احدهما فسوف يظل وجود الاخر فى وعينا بلا ادراك ... ستتواجد فى عقلنا مدركات بلا ادراك .

نقد كانط

ارجح أن يكون الفيلسوف الألمانى كانط قد نظر لمشكلة المعرفة الانسانية على انها مشكلة خلاف بين اتجاهين سادا الفكر الفلسفى البشرى ، وهما الاتجاه التجريبى والاتجاه العقلى .. نظر لها كمشكلة خلاف لاكمشلكة تعقل او ادراك من حيث هو ادراك ، فجاءت نظريته فى المعرفة تلفيقا جامعا لكلا الاتجاهين المذكورين ، ومن ثم فقد تبدى له ان حســم الصراع التقليدى بينهما ووضع نهاية للابحاث الايستمولوجية ..

لقد كان كانط واهما ، ولم يكن وهمه وقفا عليه ، بل تعداه لغيره من المفكرين الذين جروا فى اثره ، واخص منهم بنى جنسه الالمان فخته وسلنج وهيجل .. اولئك الذين اغرقهم وهم كانط فأقاموا مذاهبهم من حيث انتهى .

وبالتعرض لنظرية كانط فى المعرفة والتى عرفت فى الفلسفة بنظرية المقولات ، ارى ، أن من الضرورى أن أقدم لها تخليصا ابتداىء به تقدى لهـا .

فالمعرفة الانسانية تعتمد فى مصدرها عند كانط على معطيات التجربة التجربة الحسية .٥. على الاحساس الخارجى ، ولكننا لاندرك هذا الاحساس بكامله دفعة واحدة حالما تقع حواسنا عليه ، اعنى ، لاتنقله لنا حواســنا بمثل ما هو قائم فى الخارج ، وانما يأتينا مفتتا فى مجموعة من المعطيات الحسية المختلطة ، ونحن ، لكى ندرك هذا الاحســـــاس ينبغى ان ننظم معطياته المفتتة بمقولاتنا العقلية على التنظيم والادراك ... مقولات هى عين قدرتنا على الادراك ، ونحن لم نكتسبها بالتجربة الحســـية ، وانما ولدنا مزودين بها لكى ندرك هذا الوجود الحسى الخارجى ، فالاحساس الخارجى يأتينا بطريق حواسنا مفككا ولكى ندركه فينبغى اعادة تنظيم معطياته المفككة – فى وعينا – لكى تبدو احساسا مماثلا لوجوده الحسى الخارجى .. فالمعرفة – عند كانط – وان اعتمدت فى مصدرها على التجربة الحسية الا انها تتم بوسائل عقلية .. بمقولاتنا العقلية على ادراكها .

فمدركاتنا اذن هى تصويرات حسية وليست فكرا مجردا ، ليست فكرا خالصا – فى طبيعتها – كما زعم الفلاسفة المثاليون الألمان الذين جروا فى أثر كانط فاقاموا فلسفاتهم على تحريفهم لفلسفته .

ولسوف اثبت فيما يلى ، أن فلسفة كانط فى المعرفة لم تكن أوفر حظا من تلك الفلسفات العقيمة السابقة .

الادراك

لاندرك تصويرنا الحسى :

لقد أفرد كانط مقولات لادراك الفكرة غير تلك المقـــولات التى ننظم بها تصويرنا للاحساس الخارجى (مقولات الزمان والمكان) ، فمقـــولات ادراك المعنى أو الفكرة ـ عند كانط ـ ليست هى بعينهـا مقولات التنظيم الحسى ، وبالتالى ، فنحن فى حالة تنظيمنا للاحســـاس لن نكن عـــلى ادراك له .. لن نكن على وعى لما نفعله بمقولاتنا على التصـــوير الحسى ، لأن هذه المقولات المنظمة للاحساس هى مقولات احساس وليست مقولات أفكار ... مقولات تنظيم لمعطيات التجربة الحسية ، وليست مقولات لادراك هذه المعطيات ... مقولات تصوير حسى وليست مقولات ادراك .

فان حاولت ادراك الاحساس بمقولات فكرته فسوف يحتجب هذا الاحساس أو تصويره الذهنى عن وعيى ... يحتجب الاحساس دون فكرتى المدركة ، لأن مقولات الفكرة ليست مقولات التصوير الحسى ، ومن ثم ، فنحن فى حال تصويرنا الحسى لمعطيات التجربة لاندرك هذا التصـــوير ... لاندرك ما نفعله .

ففى حالة وقوع بصرى على مشهد خارجى ، فان احساسى لهـــذا المشهد يصبح رؤية حسية ملغزة لا معنى لها اذا مانظرت اليه من خـلال مقولاتى العقلية على التصوير الحسى ـ مقولات الزمان والمكان ـ لـكنه سوف يحتجب عن وعيى اذا مانظرت اليه من خلال مقولاتى العقلية على الادراك ـ أعنى ادراك الفكرة ـ .

ان افراد مقولات أخرى للمعانى غير تلك المقولات التى ننظم بهـــا معطياتنا الحسية .. التى ننظم بها تصويراتنا الحسية للاشياء الخارجية ، يعنى اننا اما ان ندرك هذه الأشـــياء فى غياب تصورنا الحسى لها .. فى غياب احساسنا لها ، أو اننا نتصور هذه الأشياء فى وعينا بلا ادراك لهذا التصوير .. وهذا وهم واضح ... ونحن لانستطيع أن نجمع بين ادراكنا لهذه الأشـــياء وبين تصورنا الحسى لها فى حالة ادراك بعينهـا ، أعنى لانستطيع ان ندرك تصوراتنا الحسية للاشياء الخارجية لاننا لانستطيع أن نجمع بين نشاطين عقليتين فى هذه الحالة من الادراك بعينها .. نشـــاطنا على التصوير الحسى من جهة ، ونشاطنا على الادراك من جهـــة أخرى ، فكلاهما له مقولات عقلية خاصة به .. له ملكات خاصة .

احساسات فى وعينا بلا ادراك ...

اننا ان كنا ندرك الاحساس الخارجى باكتمال تنظيمنا الحسى لمعطياته المستقبلة خلال التجربة الحسية ، ولا ندركه قبل اكتمال تصويره فى وعينا .... لكان وجود معطياته الحسية ـ قبل اكتمال تنظيمها ـ فى وعينا بلا ادراك ... اذ سوف نستقبل معطيات حسية مبهمة وغامضة ـ خلال التجربة الحسية ـ ومن ثم ،فلا يكن لوجودها فى وعينا معنى أو ادراك ، ولسوف نصبح بالتالى غير قادرين على تنظيمها فى تصوير حسى يماثل وجوده الخارجى ... سوف يصبح تنظيمنا لها اعتباطيا ،وبالتالى، فقل أن نهتدى الى تصوير حسى صحيح لها يماثل وجودها الخارجى ... وهذا وهم .

ثم أليس من التناقض ان نقول ، اننا ندرك احساسنا للموجود الخارجى حالما يكتمل تنظيمنا له فى وعينا ـ حالما يكتمل تصويرنا الحسى له ـ دون أن ندرك معطياته قبل اكتمال تنظيمنا لها ـ قبل اكتمال تصورها فى احساس واحد ـ ؟ ... أليست معطيات الموجود الحسى الواحد يمكن ان يكون كلا منها على انفراد موضوعا لادراكنا مثلما تكون هى فى مجموعها موضوعا لهذا الادراك ؟..

فان قيل ، ان ادراكنا للمعطيات الحسية يسير مع بداية دخولها مجال الوعى ، وبالتالى فنحن نستطيع تكوين تصوير حسى لها من خلال ادراكنا لها فى مجموعها !! فاقول ، اننا بغير حاجة اذن لمقولاتنا العقلية المزعومة، اذا كان الاحساس الخارجى يأتينا مدركا مفهوما فنعود بالتالى للاخذ بوجهة النظر التجريبية للادراك .. لانعد بحاجة للتنظيم المزعوم اذا كان ادراكنا لاحساساتنا سابقا لتنظيمنا لهذه الاحساسات ، يصبح الادراك سابقا على عمل المقولات فلا يعد لهذه المقولات ـ بالتالى ـ قيمة فى الادراك.

نرى الواقع بغير ماتراه حواسنا ...

ـ كما أوضحت ـ لقد أفرد كانط مقولات للفكرة الى جانب مقولات للاحساس ، ومن ثم ، فان تصورنا الحسى لايعنى ادراكا .. أعنى ، لايصبح وجود الاحساس فى وعينا ادراكا حقيقيا ، فلا يعد بالتالى مصدرا لادراكنا .

وهنا يخالف كانط بدايته التجريبية التى أقام عليها نظريته فى المقولات ... سوف ينقض نظريته بنفسه .

لقد أفرد كانط مقولات للفكرة ـ للادراك ـ خلاف تلك التى تكون بها تصويرنا الحسى ـ ففصــل ـ دون أن يدرى ـ بين الفــكرة وبين تصورها الحسى .. فصل بين احساس الفكرة وبين فكرة احساســها ، فلم يعد يتحقق لنا ادراكنا لهذا الاحساس ... تصبح تصوراتنا الحســية أشباحا غامضة دون معنى ، ومن ثم ، فلسوف ينحصر عمل مقــولات الاحساس فى تصوير احساسات جدباء لامعنى لها .. وحيث لاتعد ثمة فائدة من تصوراتنا لاحساساتنا لأن تصورنا لهــا سيكون بلا معنى لأنه سوف يكون تصويرا لأشباح ...

ثم ، ما الذى يدرينا أن تصويرنا الحسى ـ تصــويرا لأشــباح ـ يتوافق مع وجوده الخارجى أم لا ؟ وما الذى يمنعنا من أن تكون تصويرا حسيا خرافيا لشىء خارجى محسوس دون أن يتوافق هذا التصــوير الذهنى مع ذاك المحسوس الخارجى ؟سوف نرى الواقع من خلال تصويرنا الخرافى لمعطياته ... نراه بغير ما تراه حواســنا ولا نعد ندركه بالتــالى ، وهذا وهم .

لن نقدر على التصور فى معزل عن التجربة الحسية ...

مقولات الاحساس عند كانط (الزمان والمكان) تؤدى عمل ما يعرف لدينا بملكة التصور ، فلو كان لهذه المقولات القدرة على تصوير مدركاتنا الحسية من خلال توافر معطياتها خلال التجربة ، لكنا بغـير قدرة على هذا التصــوير الحسى فى معزل من التجربة ... لــكنا بغير قدرة على على التصــور الذهنى بجــانب الاحســاس أو فى معزل عنــه ، أعنى لما كان فى مقدورنا أن نمارس هذا التصوير الحسى الذهنى فى معزل عن التجربة الحسية ، فمقولات الاحساس تعمل من خلال التجربة الحســية ولا تقوى على العمل فى معزل عنها ، لأن عملها يعتمد على المعطيات الحســية التى تقدمها لنا هذه التجربة الحســـية ... ان مقولاتنا العقلية مشروطة العمل بحضور هذه المعطيات الحسية ولاتعمل فى معزل عن حضور هــذه المعطيات الحسية الى وعينا ... لا تعمل فى معزل عن التجربة وهذا وهم .. لاننا فى الحقيقة نملك القدرة على التصور الذهنى فى غير حضور التجربة الحسية .

فان قيل ، يمكننا أن نعتمد على معطيات الذاكرة الحسية ، ان كانت مقولاتنا لاتعمل الا بتوافر هذه المعطيات ؟ اقول ، ان هذه المعطيات جاهزة التصوير ،والا لمــا كان وجودها فى ذاكرتنا معقولا ، ثم كيف تسنى لهــذه المعطيات الحسية ـ ان لم تكن تصويرات ـ معقولة ـ ان تنفذ الى ذاكرتنا

عبر شعورنا دون ان تمر بالمقولات ... دون ان تنتظم بالمقولات ؟؟ وهل يمكن لمعطيات حسية أن تتواجد فى عقلنا دون ان ندرى لها وجودا او نعلم عن امرها شيئا ؟ .

وهكذا ، يتضح لنا عجز مقولات كانط ـ الزمان والمكان ـ واخفاقها فى ان تكون بديلا لملكتنا على التصور .

تعدد مقولات الادراك يمنع الادراك ...

اننا لاندرك الموجود الخارجى احساسا صرفا ، والا لاستوت نظرة كانط لادراكنا العقلى مع نظرة هيوم اليه ، ومن ثم فلسوف اكيل له بالتالى جميع الانتقادات التى وجهتها للفلسفة التجريبية باسرها ، ولما كان ضروريا لكانط أن يخصص مقولات عقلية لادراك الفكرة الى جانب مقولات اخرى للتصوير الحسى ، اذ مادام التصور الحسى كافيا للادراك فلا يعد بنا حاجة لادراك الافكار المجردة ، وبالتالى لتخصيص مقولات لهذا الادراك .

فنحن اذن لاندرك المجود الخارجى احساسا صرفا ، وانما ندركه فكرة محسوسة ، وادراكنا هذا يمنع أن نقوم بتخصيص مقوله او عديد منها لادراك الفكرة ، غير تلك المقولات التى نصور بها احساسها الخارجى .

اننا ندرك الموجود فى حالة وعى بعينها ، فان كان ادراكنا للاحساس الخارجى لهذا الموجود يتطلب مقولات عقلية خلاف تلك المقولات التى تدرك بها فكرته ، فان كل مجموعة من هذه المقولات ينبغى ان يتوافر لها حالة وعى خاصة بعينها ، فيتعذر علينا بالتالى تحقيق وحدة وعينا او ادراكنا للموجود المدرك ، سوف تتفتت وحدة ادراكنا له فندركه فى عديد من حالات الادراك .. فلا يعد يجتمع ادراكنا له فى حالة ادراك بعينها ، اذ مادام ادراكنا ليس موكولا لمقوله بعينها ، فلسوف نكون على وعى اما للاحساس ، او لفكرته دون ان يجتمعا معا فى هذه الحالة من الوعى بعينها .

ان تخصيص مقولات عقلية لادراك الفكرة الى جانب مقولات اخرى للتصوير الحسى يمنع ادراك الموجود الخارجى ادراكا حسيا فى حالة ادراك بعينها ، اذ سوف يمتنع علينا أن نجمع بين نشاطين عقليين فى مثل هذه الحالة بعينها من الادراك .. خطأ جسيم ، ان نعتقد بتوزيع نشاطاتنا العقلية بين عديد من القدرات المقترضة او المقولات أو الملكات ، لأن وحدة هذا النشاط سوف تتوزع فى هذه القدرات العديدة ، فيمتنع علينا العمل العقلى بالتالى من خلال عديد من هذه القدرات فى حالة من الادراك بعينها ... ولسوف يمتنع الادراك .

نظرية متناقضة ...

ان فكرة الاحساس المصور فى وعينا - بفعل مقولاتنا على التصوير الحسى - (مقولات الزمان والمكان) لا تدرك بمجرد استكمال تصويرناا العقلى لهذا الاحساس - كما تقرر نظرية كانط - وانما ندركها قبل تصويرنالمدلولها الحسى فى وعينا .. ندركها قبل ان ندرك تصويرنا لاحساسها ، فادراكنا سابق على تنظيمنا الحسى لهذا الادراك خلافا لنظرية كانط التى تزعم ان ادراكنا يتحقق لنا بهذا التنظيم الحسى نفسه .

اليست نظرية كانط فى اساسها تجريبية !! ومن ثم ، فان المعطيات الحسية المستقبلة فى وعينا خلال التجربة الحسية ينبغى ان تكون مفهومة لكى نستطيع بالتالى تنظيمها بمقولات الزمان والمكان فى احساس واحد معقول ، ولو لم نكن نفهمها قبل تنظيمنا لها لما استطعنا ان ننظمها فى تصوير ذهنى مماثل لمدلوله الخارجى ...!! وهذا - فى الحقيقة - تصحيح ادخله الى نظرية كانط لكى تتوافق مع اساسها التجريبى التى انطلقت منه ، اذ لكى يصبح تصويرنا معقولا فلا ينبغى ان نستقبل معطيات حسية غير مفهومة ، لأننا سوف لن نفهم احساسنا لها ، فيتقوض بذلك الأساس التجريبى لنظرية كانط ، وعلى ذلك ، ينبغى ان تستقبل معطيات حسية مفهومة ، وان كانت كذلك فلا تعد بنا حاجة لفهمها بمقولاتنا العقلية، لا تعد هذه المقولات العقلية بالتالى مصدر ادراكنا او عنصرا اساسيا فى هذا الادراك ... سوف ندرك فكرة الاحساس قبل ان يستكمل تصويره فى وعينا ، ندركه فى معزل عن مقولات تصورنا الحسى له .. فمقولاتنا على التصوير الحسى ليست بمقولات ادراك .

فالتناقض واضح فى نظرية كانط وهو يشكل صميم بنائها ، فقد انطلقت نظرية كانط من اساس تجريبى ، الا انها عادت فنهضت على انقاض هذا الاساس ، فهى لم تستقم مع البداية التجريبية الى قامت على اساسها، فقد بدأت منها ثم مالبثت أن نقضتها بتحايل خفى حين نسيت ادراكنا الحسى لمقولاتنا علىالتصوير الحسى ، بينما ادراكنا - فى الحقيقة - قائم قبل التصوير المزعوم نفسه .

سوف يختل ادراكنا ...

معطياتنا الحسية لا تأتينا من الخارج بنظام دقيق او مخصوصة بمحسوس خارجى محدد فهى تأتينا مختلطة ومتشابكة بسبب تشابك الموجودات الخارجية من جهة ، وبسبب عدم قدرة حواسنا على استيعاب الاحساس الخارجى بكامله دفعة واحدة فى وعينا من جهة اخرى ... فنحن

لكى ندرك احساسنا للعصافير المفردة على الاشجار مثلا فلسوف نستقبل احساسات متتابعة مختلطة ليست لشجرة او لعصفور محدد ، بل سيل موصول من المعطيات الحسية التى يتعذر علينا ان نميز فيها مجموعة حسية تخص هذا الاحساس او ذاك ، وانما تدفق حسى موصول آت من الخارج ، فيجتمع لنا خليطا حسيا مبهما فى وعينا .

فلو حاول العقل - بمقولاته المزعومة على التنظيم الحسى (مقولات الزمان والمكان) ان يصور نفس المشهد الواقعى المنظور من خلال معطياته المتراكمة المختلطة داخل الوعى لما بدا هذا التصوير معقولا اذ ستختلط الكيفيات بالكميات فيأخذ تصوير المشهد المذكور فى وعينا عديدا من التصويرات الحسية المحتملة ، كأن نصوره على هيئة فروع طائرة مفردة ذات أصوات خضراء .. أو عصافير ذات فروع واوراق .. سوف لن يبدو تصويرنا للمحسوس الخارجى كما هو قائم فعلا فى الخارج حالما تقع حواسنا عليه ..

فكانط اقام فلسفته على حالات حسية مفردة ، هى تلك التى يكون فيها موضوع احساسنا الخارجى شيئا محددا من الاشياء دون غيره فيأتينا بمعطيات حسية متكاملة ومتجانسة ، ولم يضع فى حسابه اننا ندرك تشابكا حسيا لأشياء خارجية عديدة فى لحظة حسية بعينها ، فنظرية كانط تقوم على التصوير الحسى المفرد والمتكامل ولا تقوم على الاحساسات المختلفة المتشابكة .

ثم ان ادراك هذا المشهد المحسوس ينبغى ان تتضافر فيه جميع مقولاتنا العقلية حتى ندركه فى حالة من الادراك بعينها ، وعليه ينبغى أن يجتمع لدينا عدة نشاطات عقلية فى حالة ادراك بعينها ... وهذا وهم ..

الذاكرة

وضعين للاحساس الواحد داخل الذاكرة ...

الفكر الكانطى يفرض وضعين متميزين للاحساس المدرك داخل الذاكرة، الوضع الأول ، هو الذى يأتينا فيه هذا الاحساس الخارجى مفتتا فى مجموعة من المعطيات الحسية خلال التجربة ، فتأخذ هذه المعطيات الحسية طريقها الى الذاكرة بنفس النظام والترتيب الزمنى الذى تواردت فيه شعورنا من الخارج ، لاننا لانستطيع ان نحتفظ باحساس ما أو بعديد منه فى حالة وعى نحن فيها على استقبال لمعطيات حسية أخرى من الخارج ... لانستطيع ان نكون على وعى لاحساس ماثل فى وعينا ولآخر يجرى تمثيله فى هذا الوعى ... لانستطيع أن نكون على وعى لاحساس ذهنى وآخر خارجى فى عين هذه الحالة من الوعى .

ينبغى اذن ان تتجه معطيات المحسوس الخارجى المفتت صوب الذاكرة فيبدو لنا فيها بالتالى مفتتا داخلها على نفس النظام والترتيب الزمنى الذى تدافعت فيه معطياته الى وعينا من الخارج ، ومن ثم ، فنحن لانستطيع أن نفهم لهذه المعطيات الحسية المفتتة داخل ذاكرتنا دلالة خارجية أو معنى . وهذه نتيجة لازمة للبداية التجريبية التى سلكها كانط فى نظريته ، فنحن لانستوعب الاحساس الخارجى فى وعينا دفعة واحدة ، وانما يأتينا على شكل معطيات حسية مفتتة فى انات زمنية موصولة ــ وهذا ما يقرره كانط نفسه ولو لم يكن ليقرره لما كانت لمقولاته جدوى ــ وهذه المعطيات الحسية ينبغى ان تتدافع من وعينا باتجاه الذاكرة بنفس النظام الذى تدافقت فيه الى وعينا من الخارج ... كأفكار تم ادراكها وينبغى حشرها بالتالى فى الذاكرة ، ولاننا ــ كما اوضحت ــ لانستطيع استبقاءها فى وعينا كأفكار مدركة الى جانب اتجاه وعينا لادراك غيرها .

فاذا كان كانط حذرا من الوقوع فيما وقع فيه هيوم ــ الذى زعم بأن الفكرة المدركة هى ذاك الاحساس الذى تمثل لنا فى وعينا حالما وقعت حواسينا على مدلوله الخارجى ــ الا انه انزلق فى خطأ اكبر حين اكد باننا نستوعب فى وعينا خلال التجربة الحسية خليطا من الاحساسات المتراكمة لكى ننظمها فى احساس واحد بعينه يماثل احساسنا الحقيقى لمدلوله الخارجى ، فوعينا لايقوى على الاحتفاظ بهذا الحشد من المعطيات الحسية المتراكمة وادراكها فى حال من الوعى بعينه ، لكى ننظمها بالتالى فى احساس او تصور حسى واحد مدرك ، والا لكان فى مقدورنا ــ كما أوضحنا فى السابق ــ ان نتحدث عن احساس ماثل فى وعينا .. بينما احساسات أخرى ماثلة

فى الوعى نفسه الى جانب الاحساس المذكور دون أن يشملهـــا الحديث .. وهذا وهم .

فالوضع الأول اذن هــو ذاك الذى تتوارد فيه معطيات المحســـوس الخارجى الى الذاكرة فيبدو لنا فيها مفتتا بلا معنى .

اما الوضع الثانى ، فهو الذى زعم فيه كانط بأن فى مقدورنا توحيــد هذه المعطيات المبعثرة ـ داخل وعينا ـ فى تصور حسى واحد بمقولاتنا العقلية المزعومة ـ مقولات الزمان والمكان ـ ففى حالة توحيد هذه المعطيات الحسية فى احساس أو تصور حسى مدرك، يتجه هذا الاحساس الموحد المدرك صوب الذاكرة فيبدو فيها مدركا مفهوما له مدلوله الخارجى المحسوس الى جانب وجوده المبعثر داخل الذاكرة عينها دون فهم ... وهذا وهم ..

وهكذا ، فلسوف يأخذ الاحساس الواحد المدرك فى ذاكرتنا وجودا مزدوجا ، فندركه تارة مفتت المعطيات تمشيا مع طبيعة احساسنا لمدلوله الخارجى خلال التجربة الحسية ـ مع البداية التجريبية لفلســفة كانط ـ وندركه تارة أخرى احساسا موحدا له مدلوله الخارجى تمشيا مع التطبيق الكانطى المزعوم لمقولاتنا العقلية على معطياته الحســـية ... فيأخذ المدرك الحسى الواحد شكلين مختلفين فى ذاكرتنا يصبح وجوده فى ذاكرتنا مفهوما وغير مفهوم فى آن واحد .. وهذا وهم .

تصبح ذكرياتنا غير معقولة ...

الاحساس الخارجى لايصبح معقولا الا بتطبيق مقولاتنا العقلية عليه ، فنحن نفهمه من خلال هذه المقولات ولا نقوى على فهمه فى معزل عنها .. فالاحساس سيظل مفهوما طالما استمر ماثلا فى وعينا منظورا اليه من خلال هذه المقولات ، لكنه يصبح غير مفهوم حين يدفع خارج وعينا باتجاه الذاكرة ، لأنه خرج عن نطاق مقولات التعقـــل والادراك ، فيتعذر علينا بالتالى تعقله وفهمه فى معزل عنها .. ولسوف يتعذر استدعاؤه ايضا .. اذ سوف يصبح وجوده فى ذاكرتنا مبهما غير مدرك كما بدا ظهوره فى وعينا خــلال التجربة الحســـية لأنه خرج عن نطاق مقـــولات ادراكنا الحسى ، لقدر ادركناه بحضورها ، ولم يعد ممكنا لنا أن ندركه فى غيابها ، فلكى ندركه ، ينبغى أن يدرك من خلال المقولات عينها فى كل مرة يطرأ لنا فيها فى وعينا ، وبعبارة أخرى ، لكى ندرك احساسات الذاكرة فينبغى أن يمر ادراكنا لها بنفس شروط ادراكها التى مرت بها حينما استقبلناها من الخارج خلال التجربة الحسية ، ومن ثم ، فلا تعد مدركات الذاكرة بمدركات عقلية ، ولا يفترق وجودها بالتالى عن تلك الموجودات الخارجية ... لايفترق وجودها الذهنى

عن وجودها الخارجى مادام كلاهما ـ لكى يدرك ـ فينبغى ان تطبق مقولاتنا العقلية عليه . وعليه ، فلا يعد ثمة مبرر بالتالى لوجود هذه الاحساسات فى ذاكرتنا ان كان وجودها فيها ليس مفهوما ، لأنه سوف يصبح لدينا احساسات مختزنة فى ذاكرتنا دون ان ندركها أو نقدر على استدعائها وهذا وهم ..

والخلاصة ، ان المعقول فى الوعى ـ بحضور مقولات التعقل ـ ليس معقولا فى الذاكرة ـ فى غياب هذه المقولات ، فلو كان معقولا فى الذاكرة لامكننا تعقله فى معزل عن مقولات هذا التعقل ـ التى لاوجود لها فى الذاكرة ـ فلا تعد ثمة حاجة بنا بالتالى لهذه المقولات ، فمقولاتنا العقلية لا وجود لها فى الذاكرة ، لأن وجودها فى الذاكرة بحضور جميع احساساتنا المختزنة فيها سوف يحيل هذه الاحساسات باسرها الى احساسات مدركة ، ومن ثم ، فلسوف ندرك جميع خبراتنا الحسية ادراكا دائما وشاملا بلا انقطاع وهذا وهم سبق لى ان أوضحته .

فاحساساتنا المختزنة فى الذاكرة لاتصبح معقولة وفق الفكر الكانطى المزعوم ..

الخيال

عقل آخر الى جانب هذا العقل ...

مقولاتنا على التصوير الحسي (مقولات الاحساس المدرك) ينبغى ان تكون هى بعينها مقولات التصوير الحسى العقلى باسره ، فتكون هى المسئولة عن أى تصور حسى آخر داخل العقل سواء اخذ هذا التصوير العقلى طابعا واقعيا أم خياليا ... سواء دل على شيء خارجي ام افتقد هذا المدلول ، وذلك لأن قدرتنا على التصور العقلى هى قدرة واحدة بعينها، اذ لايمكن أن تتعدد قدرتنا عليه بتعدد مظاهرة ، اعنى ، إن وجود تصويرات خيالية الى جانب تصويرنا الحسى الواقعى لايعنى ان ثمة قدرة على التصور الخيالى الى جانب قدرتنا على التصور الواقعى .. فقدرتنا على التصور العقلى هى واحدة بعينها .

ومقولاتنا على التصور الحسى ـ مقولات الاحساس المدرك ـ كما حددها كانط هى مقولات تصوير حسى واقعى وليست مقولات تصوير حسى خيالى ، انها مشروطة بترتيب أو تصوير واحد هو ذاك الذى يصور لنا الواقع الخارجى من خلال توارد معطياته الحسية الى وعينا خلال التجربة الحسية ، فهى مقولات مقيدة وليست حرة التصوير ، اعنى ، مقيدة بتصوير ادراكنا الحسى للاشياء الخارجية ولا تعمل على وجوه مختلفة من التصوير الحسى ، فلو كانت حرة التصوير الحسى فلسوف يمتنع علينا تصويرنا لادراكنا الواقعى نفسه .. فهى مقولات مهياة فطريا فينا لادراك هذا الواقع ... لادراك هذا الاحساس الخارجى على غرار حالته التى يوجد عليها فى الخارج ، ومن ثم ، فينبغى ان يتوافق عمل هذه المقولات مع وجود الاحساس الخارجى موضوع الادراك ... توافق عمل الذات المدركة ـ المقولات ـ مع وجود موضوع الادراك ، والا ، فما الذى يمنعنا خلال التجربة الحسية من ان نصور موضوع حواسنا تصويرا مخالفا لوجوده المحسوس ؟؟ فلا حرية اذن لمقولاتنا على التصوير الحسى ، وعليه فلسوف تمتنع علينا قدرتنا على التصور الخيالى . وهذا وهم .

ينبغى اذن أن يتوافر لنا مقولات أخرى للتصوير الخيالى الى جانب مقولاتنا على التصوير الحسى الواقعى .. وبمعنى آخر ، نحن فى حاجة الى عقل آخر الى جانب هذا العقل ... وهذا وهم ..

الفصل الثانى

رفض ملكات العقل المزعومة

رفض الذاكرة

اعتقد الناس ولا زالوا يعتقدون أن ثمة ملكات عقلية فينـــا تعمل ، وأنها مصدر جميع نشاطاتنا العقلية المختلفة ، وقد شاركهم اعتقادهم هـذا جميع الفلاسفة والمفكرون منذ ان كان هذا الاعتقاد ، فقـد أقاموا نظرياتهـ وفلسفاتهم وهي تحمل ضمنا أو جهارا هذا الاعتقاد المزعوم بملكاتنا العقلية.. ملكات الادراك والتصور والتذكر والتخيل و التفكير . ولقد توخيت هنـا القضاء على هذا الاعتقاد الفاسد عن طريق تتبع مصدره وتقويضه ، وبالتعرض للنتائج المتناقضة التى يؤدى اليها هذا الاعتقاد المزعوم فى حياتنا العاقلة..

سوف أوضح أن حياتنا العاقلة سوف تتصدع وتختل منظورا لها من خلال الاعتقاد الزائف المذكور . ولنبدأ بتقويض ملكة الذاكرة .

مصدر الاعتقاد بالذاكرة ...

كانت نظرتنا الخاطئة لتصوراتنا الذهنية هى ما اوقعنا فى ضـــلال الاعتقاد بوجود ذاكرة فى عقولنا تحتشد فيها خبراتنا الحسية ، فقد لاحظ الناس تشابها بين هذه التصورات الذهنية التى تصاحب نشـاطنا العقلى ومدلولاتها المحسوسة فى الخارج فظنوها مثلها ذات كيف وكم معلوم .

وكما لاحظوا هذا التشابه المذكور ، فقد لاحظوا بالتالى ان هـــذه الصور الذهنية متكررة الحضور فى وعينا .. تروح وتجىء وكانها هى هى بعينها خصوصا فى حالات التذكر ، فالناس لم يتعلموا استدعاءها ولكنهـم يستدعونها بطريقة تلقائية .

ومن هذا التشابه وذاك التكرار التلقائى اعتقد الناس ان ثمة حظيرة فينا تحشر فيها هذه الصور الذهنية التى لاتخرج عن أن تكون احساسات صرفه فى طبيعتها الذهنية .

هكذا كان ــ ومالبث كائنا حال الاعتقاد البشرى منذ زمن بعيد ، وهكذا نهض التصور العام بوجود الذاكرة ..

فالناس ظلوا يلاحظون تصوراتنا الذهنية تروح وتجىء فى عقـــولهم

وكأنها هى هى بعينها التى لاحظوها فى الماضى ... هى بعينهـــا خبراتهم الماضية التى طالما استدعوها وما زالوا يســـتعدعونها كلما عزت عليهم أو تعاطفوا معها ، وبتكرار ذهاب ومجيء هذه الخبرات الماضية على هيئـــة احساسات ذهنية ، أيقنوا ان ثمة مكان فى العقل تلجأ اليه هذه الخبرات ، ثم نستدعيها منه كلما دعت الحاجة اليها .. وهكذا نشأ عندهم الاعتقـاد بوجود الذاكرة .

فالحواس تطلعنا فقط على الاحساس الخارجى الحاضر امام حواسنا الآن ، ولا تطلعنا على المحسوس الماضى ، لكننا نستطيع ان نطلع عليـه فى أذهاننا ... نستطيع ان نستدعيه إلى شعورنا فنتأمله وكأنه موجود أمامنا الآن بكامل حواسنا ، اذن ، فالاحساس الماضى وان اختفى عن حواســـنا الا أنه لم يختف عن عقولنا ، انه موجود فى عقولنا ونستطيع ان نســـتدعيه وقتما نشاء الى شعورنا ونتأمله فيه ، وهكذا كان اســـتدعاء الخبرات الحسية المـــاضية بعينها ملزما لنا لأن نقرر بأنها موجودة بالفعل بكامـــل تفصيلاتها الحسية السابقة فى عقولنا ... موجودة فى احدى اركان العقل ونستطيع أن نستدعيها الى شعورنا متى أردنا ورغبنا ، فهى وان اختفتمن شعورنا الا انها لم تختف من عقولنا .

ونحن ان كنا لا نتأمل وجودها فى عقولنا باستمرار فلان هـــذا التأمل المستمر سوف يشغلنا عن استقبال احساسات جديدة خارجية ، فوجود هذه الخبرات فى عقولنا اذن ينبغى أن يكون لاشعوريا فى معزل عن وعينا لها داخل الشعور ، ولقد تعارف علماء النفس المحدثين على تسمية هذا الركن اللاشعورى من العقل باسم الذاكرة ، اشارة للطابع الزمنى لخبراتنا القائمة فيها . ونحن لانستطيع أن ندرك طابع مدركاتنا الزمنى هذا الا من خـلال الذاكرة ... فانا مثلا اذكر اننى كنت منذ سنوات طالبا فى الجامعة ، ولولم تكن لهذه الذكرى طابعا زمنيا لكان على حين أتوجه الى الجامعة فى الوقت الحاضر ، أن أدرك بأننى مازلت طالبا فيها دون أن أذكر اننى كنت طالبـا فيها فيما مضى ... ستتوافر لدى خبراتى دون طابعها الزمنى .. كمحض مدركات لا كخبرات ماضية ... سوف ادرك اننى مدرس لكن دون أن اذكر اننى عملت فىالتدريس...سوف اقرأ كتابا بأكمله دون ان اذكر اننى قرأت خلاف ما اقرأه فى هذه اللحظة ... سوف تستحيل جميع خبراتى السابقة الى مدركات عقلية صرفة وليست أحداثا زمنية .

فالذاكرة اذن هى التى تمكننى من ادراك خبراتى المـاضية ادراكا زمنيـا لأن وجود هذه الخبرات فيها يأخذ طابعا زمنيا .

ولقد غلا الناس فى تصويرهم لهذه الذاكرة المزعومة ، فهى فى اعتقادهم

ليست مخزنا لخبراتنا الحسية الماضية فحسب ، وانما ملكة تيسر لنـــا استدعاء هذه الخبرات ، وهكذا فلقد أعطوا وجودها الوهمى قدرة ذاتيـــة ثم ليقيموها بالتالى ملكة عقلية الى جانب غيرها من الملكات الأخرى .. والى هذا الحد امسك الناس ـ أو العقل العام ـ عن النظر الساذج ، أعنى أنهم لم يتجاوزوا اعتقادهم هذا لتفصيله لنا بوضوح أكبر ، انهم لم يتســاءلوا مثلا ، كيف نستدعى هذه الخبرات الحسية الماضية الى شعورنا ؟؟..

هيــوم ...

هنا ، اجتهد احد الفلاسفة الانجليز ، واعنى به ديفيد هيوم فراى بأننا نستدعى خبراتنا الحسية الماضية استدعاء آليا ، اعتمادا على مابين هذه الخبرات نفسها أو بينها وبين مثيلاتها من المحسوسات الخارجية من روابط .. فخبراتنا الحســية تتشابه وتتحاور فى وعينـــا أو تقترن ببعضـــها البعض بعلاقات عليه على غرار وجودها الخارجى ، ومن ثم ، فلســـوف يكون ممكنـــا لاحســـاس ما خارجى ان يثير فى وعينـــا احساس آخر شبيه له أو مجاور أو ذا ارتباط على معه ، فالخبرات المـاضية يمكن أن تتداعى فى وعينا تداع آلى صرف اذا ما ارتبطت هذه الخبرة الذهنية بأخرى محسوسة شبيهة لها ـ او تجاورت عليا معها ، كما يمكن لهذه الخبرة أن تتداعى فى وعينا باكملها اذا ماوقعت حواسنا على احساس شبيه لهـا أو لبعضها ، اذ سوف تتعاقب هذه الخبرة الحسية فى وعينا بانتظـــام يجر بعضها الآخر .

وفى تقديرى ، ان هيوم قد ابتدأ فلسفته التجريبية من التصور العام .. من تصور الناس بوجود ذاكرة تحتشد فيها خبراتنا الحسية فى عقولنا ، ثم ليحكم هذا التصور الساذج فى نظرية فلسفية متناسقة للمعرفة الانسانية .. لقد اقام فلسفته على اعتقاده بوجود ذاكرة فى عقولنا ـ كغيره من الناس ـ ولقد كان ينبغى عليه ـ كفيلسوف ـ ان يعيد النظر فى هذا الاعتقاد قبل أن يقيم فلسفته بأسرها عليه ، وهيوم لم يضف شيئا جديدا الى مافى أذهان الناس سوى فكرته عن التداعى المزعوم ، ولقد كان للتصور العام فضـــلا كبيرا عليه ، فقد أخذ هيوم بالفكرة التى نهض عليها تصور الناس لوجــود الذاكرة ليقيم عليها فلسفته باكملها ، فى المعرفة الانسانية .. لقد أخــذ بسذاجة الناس ليبلورها فكرة فلسفية مبدعة ، لقد لاحظ اننـــا لاندرك ذكرياتنا الا حينما تتجلى لنا فى وعينا على هيئة تمثلات ذهنية ، وحينما لاتتجلى لنا هذه التصورات الذهنية ، فى وعينا ، فلا نعد ندرك ذكرياتنا ، فالتصورات الذهنية التى صورها الناس احساسات صرفة فى طبيعتهـــا الذهنية ، ثم ليقيموا على تصورهم المذكور لها فــكرة الذاكرة ، مالبث أن

صورها هيوم كذلك ، وجعلها عين أفكارنا المدركة ، فالتشـــابه الذى لاحظه الناس بين تصوراتنا الذهنية ، وبين مدلولاتها الخارجية ، هو مادعاهم الى اعتبار هذه التصورات الذهنية من معطيات التجربة الحســـية ، وما دعا هيوم بالتالى الى القول ، بأن تصوراتنا الذهنية ما هى الا معطيات حســية فى طبيعتها ، أو آثارا حسية انطبعت فى أذهاننا من خلال تجاربنا الحسية، فالتصور العام - فى تقديرى - هو ما دعا هيوم للقول بأننا لا ندرك الموجود الخارجى دون أن يتمثل لنا احساسه فى وعينا ، فالصورة الذهنيـــة هى بعينها الاحساس الخارجى أو أثرا له ، بعد ان تنقله لنا حواسنا ، فينطبع بالتالى فى أذهاننا .

ففلسفة هيوم ، لاتخرج عن احد هذين الاحتمالين التـــاليين ، وأنا شخصيا أرجح الاحتمال الثانى .

أولهما - أن يكون هيوم قد ابتدأ من اعتقاده بأننا ندرك تصـــورنا الحسى للمحسوس الخارجى ، فيكون هو أول فيلسوف يلزمنـــا بالاعتقاد بوجود ذاكره فينا ، كنتيجة لازمة للاعتقاد بالطبيعة الحســـية لمدركاتنا ، وهذا احتمال خاطىء لأن البشر قد اعتقدوا بوجود ذاكرة عقلية قبل ظهور هيوم بحقبة زمنية طويلة ، الم ترد عبارات التذكر فى كتابات أفلاطون حين قال بأن النفس تتذكر حياتها السابقة فى عالم المثـــل : انه يريد أن يؤكد - أى أفلاطون - أن ثمة خبرات ومعارف فطرية فينا موجودة فى ذاكرتنـــا وتعود لحياتنا السابقة التى عشناها فى عالم المثل منذ الأزل .

وثانيهما - ان يكون هيوم بعد ان تعلم كغيره من الناس وجود ذاكرة فى عقولنا ، وبعد أن تأمل عملها داخل العقل ولاحظ بالتالى ان الاحســـاس الذهنى يمكننا تعقله بوجوده فى وعينا ، بينما لايمكننا تعقله باختفائه منهذا الوعى ، اقتنع هيوم بأن وجود هذا الاحساس فى وعينا ، هـــو مايمنحنا الادراك ، ومن هذه القناعة انطلق هيوم ليقيم معرفتنا ونشاطنا العقلىبأسره على معطياتنا الحسية .

فهيوم اذن ، لم يضف شيئا جديدا الى مافى أذهان الناس ســـوى فكرته عن التداعى الحسى المزعوم ، لقد اخذ باعتقاد شائع بوجود ذاكرة فى عقولنا ، ثم أقام عليه فلسفته التجريبية ، او جعلها تتوافق وتنسجم معـــه - على الاقل - فهو لم يبدأ فلسفته بداية عشوائية ، حين جعل الاحساس مصدرا للمعرفة ، وانما ابتدأ بالاحساس وهو موقن بأن وجوده فى وعينـــا هو ما يمنحنا الادراك ... يقينا لازما ليقينه بوجود ذاكرة فينا تحتشد فيها خبراتنا الحسية الماضية .

برغسون

والاغرب من هذه الصورة الفلسفية التى قدمها لنا هيوم ، مالجأ اليه الفيلسوف الفرنسى برغسون ، فلقد قام هذا الفيلسوف فى بداية فلسفته بحملة موفقة ضد الاتجاه التجريبى فى المعرفة ، ثم لينهى - وهذا هو مصدر الغرابة - الى القول بأن الذاكرة هى جوهر روحنا العامل .

ان رفض الاتجاه التجريبى فى المعرفة يعنى أن العقل يصبح خلوا من كل اثر حسى أو انطباع حملته لنا حواسنا خلال تجاربنا الحسية ، وبالتالى فلا تعد بنا حاجة لوجود هذه الذاكرة المزعومة لكى تقبع فيها مدركاتنا الحسية .

لقد كان غريبا على برغسون ان ينتهى الى مثل هذه النتيجة التى لم تكن لتتوافق مع حملته الموفقة ضد المذهب التجريبى فى مستهل فلسفته .

الفلسفات المادية ..

هذا الاعتقاد المزمن بوجود ذاكرة فى عقولنا ، قد جرويلات كثيرة على التفكير والاعتقاد البشرى بوجه عام ... ويلات اصابته بالعقم والضحالة تارة واوقعته فى الضلال تارة أخرى ، مثال ذلك تلك الفلسفات المادية التى زعمت بأن حياتنا الروحية ما هى الا شكلا متطورا من اشكال المادة ، وان حياتنا العاقلة تحكمها قوانين صارمة مثل تلك القوانين التى تحكم الظواهر المادية وان التقدم العلمى كفيل بالكشف عن هذه القوانين !!

الفلاسفة الماديون - كغيرهم من الناس نشأوا على الاعتقاد بوجود ذاكرة فينا تحتشد فيها خبراتنا الحسية الماضية ، ينبغى اذن ان تكون هذه الذاكرة ذات سعة حتى يمكن ملؤها بخبراتنا الحسية ... ينبغى ان تكون مادية ، واننى هنا لأجد الفلاسفة الماديون - رغم ضلالهم - اكثر منطقية من اولئك الفلاسفة الروحانيون الذين يؤمنون بوجود روح عاقل غير مادى الى جانب ايمانهم بوجود ذاكرة فى هذا الروح تختزن فيها مدركاتنا الحسية ، وهذه مناقضة غريبة وواضحة ، لأن فكرة الروح الخالص لاتستقيم مع الخزن الحسى ... والتناقضات الغريبة يمكننا أن نجدها بكثرة فى اعمال كثير من الفلاسفة العقليون ، مثل ديكارت وكانط وهيجل خصوصا ..

فالفلاسفة الماديون ضالون فى نظرتهم للعقل البشرى ، والذى اصابهم بالضلال واصاب جميع الابحاث الايستمولوجية الأخرى بالضحالة هو الاعتقاد الزائف بوجود ذاكرة عقلية تحتشد فيها مدركاتنا وخبراتنا الماضية ، لكن

الماديون امعنوا فى ضلالهم ليطلقوا العنان لاستنتاجاتهم الخطيرة ، خصوصا فى ميدان الأبحاث الميتافيزيقية، فقد انكروا كل ما هو روحى وسلبوا الوجود عن الروح الالهى ثم مالبثوا ان جعلوه وهما .

والآن ... فقد سبق لى ان اوضحت نقدى للمذهب التجريبى استحالة وجود آثار حسية فى عقولنا ، وهذا كفيل بتقويض اعتقادنا بوجود ذاكرتنا العقلية كملكة مزعومة الى جانب غيرها من ملكات العقل الاخرى .. لان اعتقادنا بهذه الملكة لاينهض الا على وجود هذه المعطيات الحسية فى عقولنا لكنى سوف اقضى على هذا الاعتقاد بطريق آخر ، حيث سأثبت ان جميع مظاهر عقلنا سوف تستحيل منظورا لها من خلاله ، بل ان الذاكرة ستقوض نفسها بنفسها اذا ما نظرنا لها فى ذاتها . وهذا ما سوف اوضحه فيما يلى :

امتناع التذكر والادراك معا ...

اننا لاندرك الاحساس فى معزل عن وجوده فى وعينا فى المذهب التجريبى اعنى ، لا نستطيع ان نفصل بين ادراكنا لفكرة الاحساس وبين الاحساس نفسه ، لأن الاحساس هو بعينه الفكرة المدركة فى هذا المذهب ، ففكرة الاحساس تدرك محمولة عليه ، ولايمكن تجريد ادراكنا لفكرته عنه ، لأن تجريد معانينا من احساساتنا المدركة سوف يحيلها الى مجرد هياكل جرباء داخل الذاكرة ، فنقضى بذلك على المذهب التجريبى من اساسه ... ولسوف يصبح ادراكنا عقليا صرفا . يصبح تداعى خبراتنا الحسية من الذاكرة الى الشعور بلا معنى لأنه سوف لن يقدم لنا معان وافكار وانما هياكل حسية صماء دون فكر أو معنى .

والاهم من هذا ، ان ادراكنا العقلى سوف يتعلق بالفكرة المجودة لا بالاحساس . فالفكرة المدركة فى هذا المذهب التجريبى هى الاحساس عينه القابع فى الذاكرة ، ولايمكننا ادراكها فى معزل عن حضور هذا الاحساس فى وعينا .

ووجود هذه الأفكار (الخبرات الحسية) فى ذاكرتنا ينبغى أن يتيح لنا ان نكون على وعى دائم وشامل لها ، اذ لايعقل ان تكون لهذه الخبرات الحسية ـ والافكار وجود فى عقلنا بلا ادراك ، لايعقل ان يتوافر لنا ادراكها فى جانب من العقل (الشعور) بينما لانستطيع ادراكها فى ذلك الركن الاخر المزعوم (الذاكرة) فوعينا لمدركاتنا الحسية ينبغى ان يتوافر لنا اينما حلت هذه المدركات الحسية فيه . أليست هذه المعطيات الحسية هى عين أفكارنا ومصدر ادراكنا ؟ ثم ، أليس العقل وحده متجانسة فان تسنى لنا ان ندرك

فى ركن منه ، فان وحدته المتجانسة توجب علينا أن ندرك فى كل ركن من اركانه ؟ .

وحتى ، بافتراض وجود مناطق شعورية واخرى لاشعورية داخل عقلنا فمن اين اتانا هذا التقسيم ؟ اذن هناك ترتيب سابق على الوجود ... ترتيب غيبى ، وهنا ، يصبح العقل والمعرفة البشرية باسرها غير مرهونة كلية بالاحساس الخارجى ، وانما يدخل فيها ترتيبا قبليا من اجل هذا الغرض نفسه ـ اعنى من اجل ادراك هذا الاحساس ـ ومن ثم ، فلسوف يكون فى عقولنا ترتيبا عيبيا لكى ندرك .. ينبغى أن يتوافر لنا فى ذاكرتنا وعيا دائما وشاملا لادراكنا الحسى باسره ـ لافكارنا المدركة ـ ومن ثم ، فلسوف يصبح الوعى خاصية العقل باسره وليس ملكة عقلية دون باقى العقل ، اعنى ليس وعيا جانبيا فى مقابل باقى العقل اللا واعى ، ولسوف تتقوض الذاكرة لاننا لانعد بحاجة للذكر شىء أو خبرة مدركة ما دمنا على حالة وعى دائم وشامل لادراكنا وخبراتنا باسرها .

وكما تتقوض الذاكرة ، فلسوف يمتنع الادراك ، اذ يصبح ادراكنا دائما لنفس الخبرات الحسية ـ الافكار ـ الموجودة فى الذاكرة فيتعذر علينا أن ندرك غيرها بالتجربة الحسية ، لأن الادراك الماثل فى وعينا دون كف أو انقطاع سوف يعرقل كل محاولة لادراك جديد ... فالوعى العقلى لايمكن توجيهه لمدركات داخلية وخارجية فى آن واحد ، كما لانستطيع توجيه وعينا لادراك احساس خارجى بينما احساسات اخرى ماثلة فى وعينا نفسه بلا ادراك .

امتناع النشاط العقلى ..

مدركاتنا الحسية المختزنة فى الذاكرة ليست مدركات شعورية لاننا لانستطيع ان نكن على حالة وعى شامل لها باسرها فى حالة شعورية بعينها ، فلو كنا كذلك فلسوف نفتقد ذاكرتنا ـ كما سبق أن أوضحت ـ لانها ستصبح ـ أى الذاكرة ـ شعورا أو وعيا آخر لادراكنا العقلى باسره الى جانب شعورنا أو وعينا التجريبى المتصل بالتجربة الحسية المباشرة ، فيكون لنا وعيان فى آن واحد احدهما متصل بالعالم الخارجى وخاص باستقبال معطياته الحسية ، وآخر يحيط بادراكنا الحسى باسره المختزن فى الذاكرة ، ومن الواضح هنا ، ان وعينا لادراكنا الحسى باسره سوف يغنينا عن حفظ

هذا الادراك فى ذاكرة ... لانعد بحاجة لهذه الذاكرة .

فمدركاتنا الحسية المختزنة فى ذاكرتنا مدركات لاشعورية ، ونحن لكى

نفكر مثلا فينبغى ان نكن على وعى لما نفكر فيه .. على وعى لموضوع فكرنا ، لكننا لانعيه هنا ، فهو مدرك لاشعورى ، ومن ثم ، فلن نكن على وعى لكوننا نفكر ان كنا لاندرك موضوعا لهذا التفكير ، ولو كنا ندرك افكارنا فى غياب مدلولاتها الحسية القائمة فى الذاكرة لقام تفكيرنا على الفكر الخالص دون الاحساس ، ولما كنا بحاجة للاحساس المتواجد فى الذاكرة ، ولكى يكن امامنا منفذا للتفكير — فلا يبق امامنا الا ان نفكر من خلال مدركات الذاكرة الحسية .. نفكر من خلال الذاكرة عينها، فتتحول الذاكرة باسرها وبجميع مدركاتها الى ذاكرة شعورية ، اعنى ، نصبح على وعى لجميع مدركاتنا الحسية ، لأن الفكر حين ينطلق من وعيه لمدركات الذاكرة فلسوف يحيلها مدركات شعورية ، فتصبح الذاكرة شعورا نمارس نشاطنا العقلى ، بجميع مظاهرة من خلاله .. ندرك ونفكر ونتخيل من خلاله الى جانب وعينا لخبراتنا وادراكنا الحسى باسره ، ندرك ونتذكر .. نفكر ونتذكر ... ونتخيل ونتذكر فى آن واحد مادامت موضوعات الادراك والفكر والخيال هى بعينها ذكرياتنا الحسية والمختزنة .. وهذا وهم لأن وعينا لادراكنا الحسى باسره سوف يمنعنا من ممارسة نشاطاتنا العقلية الى جانبه فالنشاط العقلى هنا سيكون وعيا آخر الى جانب وعينا لادراكنا باسره ، وهذا باطل .

نقد برغسون ...

رأيت ان اوجه نقدى لفلسفة برغسون — الفيلسوف الفرنسى — فى هذا المكان لانه زعم بان ذاكرتنا هى جوهر روحنا العاقل ، وهذا زعم ارفضه باصرار .. ان ادراكنا الحسى زمنى ... بمعنى ، انه يأتينا عبر انات الزمن ، فالحواس لاتنقل لنا انطباعنا الحسى بكليته دفعة واحدة وانما يأتينا فى مجموعة من المعطيات الحسية الموصولة عبر انات زمنية متلاحقة ، فما تدركة فى هذا الآن غير ما ادركناه فى الآن السابق أو ما ستدركه فى الآن الذى يليه ، فادراكنا الحسى يمر عبر حواسنا الى عقولنا خلال انات زمنية متتابعة ، بحيث يندفع الاحساس تلو الاخر من الشعور فى اتجاه الذاكرة فى سلسلة حسية موصولة فحينما استقبل احساسا فى هذا الآن من خلال تجربتى الحسية القائمة ، فانا لا البث ان استقبل آخر فى آن تالى وهكذا ...

وارجح جيدا ان يكون الفيلسوف الفرنسى برغسون قد اقام ديمومه شعورنا وسيلانه — بمعنى ان شعورنا دائم التحول والسيلان — على هذه الملاحظة المذكورة ، لقد تبدى لبرغسون أن شعورنا لكى يدرك الاحساسات المتعاقبة عليه من الخارج فى سيل موصول ، ينبغى ان يتحول من ادراك لهذا الاحساس لادراك ذاك الاحساس الذى يعقبه فى آن تالى ، فهو شعور متحول بالضرورة لكى يدرك السيل الحسى المتعاقب عليه من الخارج ... ينبغى

لشعورنا ان يلاحق فى تحوله التعاقب الحسى الموصول عليه خلال التجربة الحسية .

ومن الواضح ، ان برغسون قد اخطأ اذا اقام سيلان شعورنا على التصور المذكور ، لقد وقع برغسون فى ضلال المذهب التجريبى الذى استهل فلسفته بالحملة عليه ، والحقيقة ، ان فكرته عن الديمومة ما كانت لتستقيم أبدا دون نظر منه لادراكنا على انه حسيا فى طبيعة العقلية ... دون اعتقاد منه بحقيقة ادراكنا التجريبى الذى حمل عليه منذ البداية .

فالشعورلكى يتحول ويسيل فمن استقبال احساس حاضرا الى استقبال احساس آخر لاحق والا فلا معنى لهذا التحول ... فديمومة برغسون اذن تنهض على نفس الأسس التجريبية التى رفضها ، ولقد كان ما وقع فيه برغسون شبيها بما وقع فيه الفيلسوف الألمانى كانط .

ومما يراه برغسون ، أننا لكى ندرك الاحساس الخارجى الذى لاتكف معطياته عن الانقطاع عن شعورنا ، فينبغى ان تكون فى كل حال من احوال هذا الادراك احوال التحول الشعورى على وعى لما ادركناه فيما مضى من هذه المعطيات ولما سيجىء منها . وهذا تصور وهمى الى جانب انه مخالف للديمومة التى زعم بها ، فديمومة الشعور لاتقبل التوقف ، بينما نجد أن ادراكنا يتطلب التوقف وهو ادراك شعورى ... يتطلب حصر جميع معطيات المحسوس الخارجى فى حالة وعى بعينها حتى نستطيع ادراكه ، وهذه مناقضة واضحة وقع فيها برغسون .

وهو تصور وهمى ، لأن من المتعذر علينا استبقاء معطيات حسية فى شعورنا الى جانب ما نستقبله فى هذا الآن خلال التجربة الحسية ، لان هذا يعنى أن فى مقدورنا أن نوجه وعينا لمدرك داخلى وآخر خارجى فى آن واحد ، أو أن نوجه وعينا للمعطيات الخارجية المستقبلة الى جانب معطيات حسية أخرى داخل وعينا بلا وعى ، وهذا وهم ، كما انه لا يساعدنا على ادراك المحسوس الخارجى لأننا سوف نفتقد فى ادراكنا له جزء من معطياته القائمة فى وعينا بلا وعى ، كما اننا سوف نكن بغير قدرة على استقبال احساسات جديدة بينما ثمة احساسات اخرى ماثلة فى وعينا .

وهكذا ... فالشعور السيال لايستقم مع تفسير ادراكنا الحسى ، فلكى ندرك السيل الحسى الذى لاينقطع عن شعورنا ، فينبغى ان ينقطع شعورنا عن التحول والسيلان ... ينبغى ان تتواجد معطيات التجربة الحسية بكاملها فى حالة شعورية بعينها دون ان تتحول أو يتحول بعضها الي الذاكرة ، لأن فى تحولها او تحول بعضها تحول للادراك من شعورنا ..

ومن ثم ، سوف يكون فى مقدورنا ان نمنــــع اندفاع احساس ما ماثلا فى شعورنا بينما نحن نستقبل احساسات اخرى خلال التجربة الحســـية ، وبالتالى أن نوجه شعورنا فى آن واحد بعينه لاحساسين احدهما ماثل فى الشعور وآخر قائم فى الخارج .. سوف يكون فى مقـــدورنا وقف سيولة شعورنا المزعومة .

ولمة نقد آخر اوجهه لفلسفة برغسون فاقول ، ان سيولة مدركاتنا باستمرار تمنع القول بحفظها فى الذاكرة ، فديمومة الشعور لا تتوافق مع وجود ذاكرة فينا تحتشــد فيها مدركاتنا الحسية دون أن تســيل ، لقد صور برغسون حياتنا العاقلة سيولة متدفقـة من الكيفيات المدركة تأخذ طريقها صـــوب الذاكرة وعليــه ، ســـوف لا نســتطيع أن نمارس نشاطنا العقلى باختلاف ظواهره من خلال هذه السيولة ، لأن النشاط العقلى يتطلب اســتبقاء مدركات حسية فى شعورنا ليكون موضوعا لهذا النشـاط ، فيقطع استبقاءها فى شعورنا الطريق على غيرها من أن تسيل .

وقد يقال ، ان قطع سيلان المدركات لا يقطع سيل الشعور نفسه من حيث هو شعور ، أقول ، سوف يسيل الشعور فى اتجاه الذاكرة دون ان يودع فيها شيئا من المدركات ... اعنى ، ندرك أشياء لا يقوى شعونا السيال على دفعها باتجاه الذاكرة ، سنكون فى حالة سيل شعورى غير واعى الى جانب وعينا لمدركات لا يقوى السيل الشعورى على دفعهــا باتجاه الذاكرة .

ثم .. ان كانت السيولة الشعورية تجرى فى اتجاه الذاكرة ، فلا يمكن عكسها بحيث تجرى فى اتجاه الشعور ، وبالتالى ، فلسوف يتعذر علينا استدعاء خبراتنا المـاضية التى اودعتها هذه السيولة الشـــعورية المزعومة فى ذاكرتنا ، فلا نعد نعى ذكرياتنا أو نقوى على استدعائها ... فلا تعد لنا ذاكرة ، لأن وجود ذكريات لا نقوى على استدعاءها يســتوى مع عدم وجود هذه الذكريات .

امتناع النشاط الخيالى :

لا يشكك احدا من الفلاسفة ، تجريبيون كانوا أم عقليــون من أن مخيلتنا تعتمد فى تصويرها الخيالى على نفس المعطيات الحســـية التى نستقبلها خلال تجاربنا الحسية وحجة ذلك أن احدا منهم لم يعطنــا تفصيلا لطبيعة هذه التصورات الخيالية التى تجتاح شــعورنا من حين لآخر ، بينما اكد لنا الفيلسوف التجريبى الانجليزى هيوم أن تصويراتنا

الخيالية هى فى طبيعتها احساسات باهتة اقل موضوعا من مدلولها الخارجى المحسوس ، ويبدو ان جميع الفلاسفة الذين بحثوا فى العقل البشرى كانوا على قناعة من ان مخيلتنا تعتمد على نفس معطياتنا الحسية فى تصويرها الخيالى ، ومع ذلك فقد ظل هذا الموضوع ـ موضوع تحديد طبيعة تصوراتنا الخيالية ـ غامضا دون تفصيل فى نطاق الفكر الفلسفى .

الا أن اعتقادنا بوجود ذاكرة فى عقولنا أوجب ـ فى تقديرى ـ ان تكون جميع تصوراتنا العقلية بأسرها ـ ومنها تصويراتنا الخيالية ـ ذات طبيعة حسية ... أوجب علينا ان ننظر لطبيعة خيالاتنا نظرة حسية ، لأنها لو لم تأخذ هذا الطابع الحسى فلسوف يكون لنا ادراك آخر إلى جانب ادراكنا الحسى ، أعنى ، ادراكا لا يعتمد على معطيات التجربة الحسية ، وهنا ، اما أن نضحى بالذاكرة ومدركاتها الحسية ما دمنا نقدر على التصور العقلى بلا معطيات حسية نعتمد عليها فى هذا التصوير ، واما أن يخضع تصويرنا الخيالى للفكر التجريبى فنقيمه على نفس معطياتنا الحسية ، ومن ثم ، فينبغى أن تكون الذاكرة هى المورد الأساسى لهذه المعطيات الحسية لتكون موضوعات تصويرنا الخيالى ، وينبغى أن يكون فى مقدور المخيلة أن تعتمد فى تصويرها الخيالى على المعطيات الحسية المباشرة خلال التجربة بحيث تصور هذه المعطيات الحسية المستقبلة بخلاف تصويرها الواقعى المحسوس .

ولا يعقل هنا أن يكون لمخيلتنا مصدرا عقليا آخر غير الذاكرة تستمد منه المعطيات الحسية ليكون موضوعات لتصويرها الخيالى ... أعنى ، لا يعقل أن يكون للمخيلة مثلا ذاكرة أخرى خاصة بها تحتشد فيها خبراتنا الخيالية خلاف تلك الذاكرة التى تقبع فيها خبراتنا الواقعية . فالمخيلة اذن تعتمد فى تصويرها الخيالى على معطياتنا الحسية المختزنة فى الذاكرة ، وهذا هو ما يعنينى أن اناقشه هنا لكى اثبت ليس فقط زيف هذا القول بل لأثبت بالتالى ان الاعتقاد بوجود مخيلة فى عقلنا الى جانب وجود الذاكرة أمرا مستحيلا .

لقد أخطأ الفيلسوف الانجليزى هيوم حين زعم بأن تصويرنا الحسى الخيالى هو ذاك الذى لا يختلف عن تصويرنا الواقعى ، الا فى وضوحه الكيفى فحسب ، أعنى ، حين زعم بأن تصويراتنا الخيالية هى فى طبيعتها آثارا باهتة اقل وضوحا من تصويراتنا الواقعية المدركة ، كالفرق بين احساسى للشجرة فى الليل وبين احساسى لها فى النهار ، فادراكى لفكرة الشجرة لا يختلف فى كلتا الحالتين مع اختلاف الاحساسين فى وضوحهما

الكيفى ، ان ادراكنا للأشياء الخارجية المحسوسة لا يختلف باختلاف وضوح احساسنا الكيفى لها ، ومن ثم ، سوف ندرك كلا الاحساسين المتفاوتين فى وضوحهما الكيفى ادراكا واقعيا .

لقد كا نهيوم واهما ، لان التخيل لا ينهض على الاحساس الصرف وانما يقوم على العلاقات القائمة بين المحسوسات أو على النسب القائمة فى المحسوس الواحد بعينه ، فالعلاقة لا الاحساس الصرف هي محور نشاطنا الخيالى .

ثم ، ان الاحساس الصرف موضوع التخيل لا يقبل التخريف الخيالى .. لا يقبل أن تجرى عليه تعديلات خيالية ... لأننا بحاجة الى وعى آخر الى جانب وعينا للاحساس موضوع تحريفنا الخيالى ، ينبغى أن يكون لنا ادراك آخر ينهض عليه تصويرنا الخيالى خلاف ادراكنا لموضوع هذا التحريف الخيالى ... اننا حين نجرى تحريفا خياليا على احساس ما ماثل فى شعورنا فان وعينا له خلاف وعينا لتصويره الخيالى بعد اجراء التحريف عليه ، ولكى نجرى تحريفا واعيا - غير اعتباطى - على الاحساس موضوع التحريف الخيالى . بينبغى أن نكون على وعى شعورى مسبق للصورة الخيالية التى سوف يؤول اليها الاحساس موضوع التحريف الخيالى بعد تحريفه ، وذلك حتى نتمكن من تحريف الاحساس موضوع التحريف الخيالى على غرارها ... وبعبارة اخرى ، ينبغى لكى نتخيل أن تتواجد فى شعورنا الصورة الخيالية الى جانب الاحساس - موضوع التخيل - قبل القيام بعملية التخيل نفسها وذلك لكى نحرف هذا الاحساس على غرارها ، ومن ثم ، فلسوف يرتسم تصويرنا الخيالى فى وعينا دون حاجة بنا للتخيل ، سوف يمتنع علينا تصويرنا الخيالى طالما كان وعينا الضرورى والمسبق له لا تتحقق الا بوجوده حسيا فى شعورنا وعليه فلا تعد بنا حاجة للتخيل ما دام التصوير الخيالى يأتينا جاهزا حالما نكن على وعى لما نريد تخيله ولا تعد بنا حاجة بالتالى للاحساس موضوع التحريف الخيالى ، ثم ان الاحساس - موضوع التخيل - سوف يختفى من شعورنا حالما يرتسم التصوير الخيالى فيه لأننا لا نستطيع أن نكن على شعور لهذا التصوير الخيالى الى جانب شعورنا لاحساس آخر ماثل الى جانبه فى شعورنا عينه .. نشعر به دون شعور للاحساس الماثل الى جانبه .

ثم لنسأل ؟ من أين اتتنا هذه الصورة الخيالية ان كانت ثمة صوراً من هذا القبيل تأتينا جاهزة دون أن ندرى عن تكوينها فى عقولنا ؟ كيف تواجدت هذه الصورة الخيالية فى اذهاننا دون أن نكن نحن الذين

كوناها بالفعل فى شعورنا ؟ ان تكوين المدركات العقليـــة ينبغى أن يتـــم شعوريا دائما ، اعنى ، فى حضور شعورنا ، والا فليست هذه المدركات بمدركاتنا لأنها تمت فى معزل عن وعينا لتكوينها ... وحيث لا يعقل أن يكون لنا عقل آخر غير واعى خلاف عقلنا الواعى ليكون مصدرا لتكويناتنا الخيالية اللاشعورية .. ثم .. لنسأل أخيرا ؟ لمـا لا تحشر هذه التصويرات الحسية الخيالية فى ذاكرتنا شانها شأن التصـويرات الواقعية الأخرى ، بحيث يكون لنا ذكريات خيالية منظمة كتلك الذكريات الواقعية ؟؟ .

ان لم تكن كذلك فلا ينبغى لهـذه التصويرات الخيالية سـوى أن تحتشد فى ذاكرة لها خاصة .. ذاكرة أخرى للخيالات والخرافة .

وحتى توجد مثل هـذه الذاكرة الخرافية المفترضـة ، ينبغى أن تطلعنا بدقة على تفاصـيل خيالاتنا الماضية المختزنة فيهـا بحيث نستدعيها هى هى بعينها باستمرار . وهـذا تخريف واضـح الى جانب التخريف القائل بوجود ذاكرة للخرافة .

ننتهى الى القول ، بأن نشاطنا الخيالى سوف يمتنع علينا ان نحن اعتمدنا فيه على معطيات تجاربنا الحسية المختـزنة فى الذاكرة ، الا ان وجود هذا النشاط الخيالى الى جانب عدم اعتماده على مدركات الذاكرة الحسية يعطينا تأكيدا قاطعا لوهمنا بهذه المدركات المختزنة فى الذاكرة ولوهمنا بالذاكرة نفسها ، أعنى ، سوف يصبح وجودها المزعوم فى عقلنا وهميا زائفا .

لا اختزان حسى ... فلا ذاكرة ..

ـ كما اوضحت فى نقدى للمذهب التجريبى ـ فاننـا لا ندرك محسوساتنا الخارجية بحضورها حسيا فى وعينا ، قد نتصورها فى وعينا ولكن دون ضرورة ، أعنى دون أن يكون ادراكنا لها ملزما لنا بتصورها فى وعينا ، ونحن نتصورها دون أن يعنى هذا التصور ان لها فى وعينا نفس الطبيعة الحسية التى لوجودها الخارجى ... نحن نتصورها دون ضرورة لأن ضرورة ادراكنا للمحسوس الخارجى يعنى ضرورة احســاسه فى وعينا .. ضرورة حضور اثره الحسى فى وعينا فى كل حالات ادراكه .

وتصورنا العقلى لها ليست له الطبيعة الحسية المزعومة ، والا لما انفك تلاحق هذه التصورات الحسية عن وعينا حالما نكن على ادراك لها ، اعنى لما تيسر لنا الادراك فى معزل عن احساسنا لهـذا الادراك ، لأن الادراك ان توافر لنا فى معزل عن احساسنا له فلا مبرر لوجود احساسنا

له فى عقولنا كمصدر للادراك . وحتى فى حالة وجود الاحساس فى هذه الحالة ، فلسوف يكن ت صورنا الحسى بلا معنى ، اى نتصور احساساتنا دون أن ندركها .. وهذا وهم .

ونحن ـ فى الحقيقة ـ نستطيع ممارسة نشاطنا العقلى بلا تصورات تتعقبه بالضرورة ، نحن نقرأ صفحة كاملة من كتاب ونتفهمها بكامـــل معانيها دون أن تتلاحق هـــذه المعانى فى وعينا على شـــكل شريط من التصورات الحسية وبالمثل ، فنحن نذكر خبراتنا الماضية دون تصورات حسية تلاحق ذكرنا لها ، فادراكنا للخبرة الشخصية الماضية هـــو ادراكا عقليا شأنه شأن ادراكنا الموضوعى للأشياء الخارجية فى طبيعتـه الذهنية ولا يمكن ان يفترق فى طبيعته الذهنية لكونه ادراكا شخصيا ... اعنى ، من الذاكرة الشخصية ، وادراكنا الموضوعى للأشياء الخارجية هو بدوره ادراك ماضى يوجد الى جانب خبراتنا الشخصية داخل الذاكرة .. فادراكنا العقلى بأسره ، تصورا كان أم ذكرى أم فكرة أم خيال لا ندركه ندركه حسيا فى وعينا ..

اننا نذكر مدركاتنا وخبراتنا الماضية بلا احساس لها فى وعينـــا ، ومن ثم ، فان كنا نختزن احساساتنا المدركة وخبراتنا المـاضـــية فى ذاكرتنا لاستعصى علينا ذكرها دون أن تتلاحق هذه الاحساسات فى وعينا بالضرورة ، وكما أوضحت ـ فنحن لا نستطيـــع ذكر مدركاتنــــا دون محسوساتها المختزنة فى الذاكرة لأننا فى هـذه الحالة سوف نقـــوض المذهب التجريبى .. فلا وجود لمدركات حســـية مختزنة فى الذاكرة .. ولا وجود لذاكرة فى عقولنا بالتالى .

رفض المخيـــلة

كما اعتقد الناس بوجود ذاكرة فى عقولنا تختزن فيها مدركاتنـــا وخبراتنا الحسية ـ فقد اعتقدوا ـ الى جانبها ـ بوجود ملكة للتصوير الخيالى نعتمد عليها فى تصوير مدركاتنا للأشياء الخارجية المحسوســـة على خلاف تصويرها الواقعى ...

ولم يقدم لنا الفكر الفلسفى البشرى تفسيرا لطبيعة عمل هـــذه الملكة المزعومة فينا سوى شذرات وردت فى بعض أعمال الفلاســـفة ، نظروا فيها لطبيعة تصويراتنا الخيالية من خلال مقدماتهم أو فروضهـــم التعسفية .

والحق ، ان اعتقادنا بوجود مخيلة فينا لم ينهض على فكر فلسفى، وانما نهض على ملاحظتنا الساذجة لمـا يجرى فى عقولنا ، حينما نصـور الأشياء المدركة لدينا على خلاف تصويرها الواقعى ... لكن دون أن نفقد تصورنا الواقعى نفسه لهذه الأشياء .. ودون أن نتقد بواقعية تصويرنا الخيالى وعلى الجملة ، فلســـوف اثبت فساد اعتقـــادنا بهذه الملكة الخيالية المزعومة ، سواء قام هذا الاعتقاد على ملاحظتنا الساذجة لمـا يجرى فى عقولنا او على الفكر الفلسفى .

تصويراتنا الخيالية ليست حسية فى طبيعتها ..

ان كانت مخيلتنا تعتمد على مدركاتنـــا الحسية فى تصـــويرها الخيالى ، فان هذه الاحساسات لا وجود الها الا فى الذاكرة ، أو نستقبلها مباشرة من الخارج بطريق الحواس فنصورها بالتالى فى وعينـا خلاف ما تعطيها لنا التجربة الحسية والمدركات الحسية المختزنة فى الذاكرة لا تسمح لى بتصويرها على خلاف ماارتسمت فى ذاكرتى .. على خلاف ما اتصورها وأذكرها بالفعل كمدركات وخبرات عقليـة . فلو صـورت فأرا بهلوانياراقصا وسط حلقة من القطط الضاحكة .. ربما قيل ، انهـــا جميعا تصورات حسية تداعت الى وعينا من الذاكرة فكونت بتداعيها هذا المشهد الخيـــالى . لكن ، اية علاقة تداع تلك التى ربطت بين هـــذه التصورات الحسية فحكمت مجيئها الى شعورنا بنظام ما لتكون هـــذا المشهد الخيالى ؟؟

فاحساساتنا المدركة تتداعى فى وعينـا على نفس نظام تداعيهـــا الخارجى ، فهى ترتبط بعلاقات واقعية ، أعنى ، لا يمكن ربط هـــذه

التصورات الحسية فى وعينا بغير تلك العلاقات التى ربطت بينهـــا فى الخارج .

فلكى تعتمد مخيلتنا على مدركاتنا الحسية المختـــزنة فى الذاكرة فى تصويرها الخيالى ، فلسوف ترتبط هذه المدركات الحسية فى وعينا بنفس العلاقات التى ربطت بينها فى الخارج ... لن نستطع تصوير هذه المدركات بغير ذلك التصوير الذى يشكله تداعيها المنظم من ذاكرتنا ، كتصورات أو كخبرات حسية مدركة ، ومن ثم ، تصبح تصويرنا الخيالى مجرد تصور.

أو ذكرى حسية ، فيمتنع عليها تصويرنا الخيالى .

ولا يمكن القول هنا بأن مدركاتنا الحسية التى يعتمد عليها تصويرنا الخيالى تتداعى فى وعينا بلا نظام ، لأن هذا يعنى اننا ندركها حسيا بلا نظام ومن ثم ، فلا تنتظم احساساتنا فى وعينا بمثل انتظامها الخارجى .. فلا تعد تدرك .

وقد نستطع جعل مدركاتنا الحسية المباشرة خلال التجربة الحسية موضوعا لتصويرنا الخيالى ، فنصور هذه المدركات الحسية على خـلاف ما تعطيها لنا حواسنا ... على خلاف ما تعطيها لنا تجربتنا الحسية ، فتنتظم مدركاتنا الحسية فى وعينا بخلاف انتظامها الواقعى .. بخلاف تصورنا الواقعى لها فتصبح مخيلتنا بالتالى ملكة لتصوير ادراكنا الحسى ـ ان لم نكن قد ادركنا هذه الاحساسات من قبل ـ أو تصبح ملكة لتذكر هذه الاحساسات وتصورها فى وعينا ـ ان كنا قد ادركناها من قبل ـ وهذا وهم .. لاننا ونحن نتخيل فنحن نكن على علم بواقعية موضـوع تحريفنا الخيـالى رغم اجراء التحريف الخيالى عليه، وعلى علم باننـا نتخيل .

تعارض نشاطنا الخيالى مع طبيعة نشاطنا العقلى ...

مدركاتنا الحسية فى الفكر التجريبى ، لسنا نحن الذين نشكلها فى شعورنا بحيث تبدو كما نتصورها بالفعل ، اننا نتصورها فى شعورنا على نحو ما تعطيها لنا تجاربنا الحسية ونستدعيها من الذاكرة ، فلو كنـا نؤلف مدركاتنا الحسية فى شعورنا خلال التجربة الحسية ـ كما ذهب الفيلسوف الألمانى كانط ـ لكان ينبغى علينا فى كل احساس جديد لهـا ان نعيد تأليفها وكأننا لم ندركها قط ، وأن نعيد تشكيل ذكرياتنا فى كل مرة نستدعيها الى شـعورنا ، فلا يعد لنا بالتالى ذكريات أو مدركات محددة ثابتة فى عقولنا ... فالاحساس المدرك الذى تكون فى وعينا لن يظل

مدركا فى غيابه عن هذا الوعى الذى كونه . فمعطياتنا الحسية المدركة ـ فى الفكر التجريبى لا تؤلفها فى شعورنا عند تصورنا لها ـ خلال التجربة الحسية ـ وانما نستوعبها فى شعورنا كما تعطيها لنا التجربة ، وكما تتداعى من الذاكرة ، ففاعليتنا العقلية على تأليف تصوراتنا الحسية لا وجود لها .

ولو كانت ثمة فاعلية خاصة لمخيلتنا فى تأليفها لتصوراتنا الحسية ومع الاعتراف بوجود ذاكرة فى عقولنا الى جانب ملكتنا على التصوير الخيالى فلسوف تتعارض هذه الفاعلية الخيالية مع طبيعة ادراكنا الحسى المذكور ، وعليه ، فلكى يتوافق عمل مخيلتنا مع طبيعة ادراكنا العقلى الحسى ينبغى ان نستقبل تصوراتنا الخيالية جاهزة فى شعورنا مثلما نستقبل مدركاتنا الحسية الخارجية خلال التجربة ، ومثلما نستقبل خبراتنا الحسية الماضية خلال تداعيها من الذاكرة .. بحيث تندفع الصورة الخيالية الى الشعور مثلما يندفع الاحساس الخارجى اليه .. ينبغى الا تمارس المخيلة عملها التأليفى على مدركاتنا الحسية كغيرها من ملكات العقل ، ومن ثم فلسوف يمتنع علينا نشاطنا الخيالى ، فان كان لملكاتنا الأخرى ما لمخيلتنا فلسوف يكون فى مقدورنا ان نؤلف مدركاتنا وذكرياتنا مثلما نؤلف تصويراتنا الخيالية ـ بملكتنا على التصوير الخيالى ـ فتتعدد ملكاتنا العقلية على التصوير العقلى .. وهذا وهم واضح .

الخيال لاينهض على التصورات الذهنية ...

نشاطنا الخيالى لاينبغى ان تصاحبه ـ ضرورة ـ تصورات ذهنية .. إيا كانت طبيعة هذه التصورات ، فكما كان ممكنا لنا أن ندرك دون أن يلاحق ادراكنا تصويره الذهنى ، فانه لممكن لنا بالتالى ان نكون على وعى لخيالاتنا دون ان يلازم وعينا لهذه الخيالات تصويرها الذهنى .. يمكننا ان نتخيل دون أن يعترى وعينا تصورات ذهنية .

فان كان ممكنا لنا ان نتخيل دون ان نتصور ، فليس صحيحا ان تكون تصوراتنا الخيالية التى تصاحب وعينا الخيالى هى قوام هذا الخيال ... فنحن نسمع كلاما خرافيا وندركه دون ان نتمثله ، فالخرافى شأنه شأن بقية المدركات العقلية التى ندركها غالبا دون ان نتمثلها بالضرورة ... دون ان تعترينا تصوراتها الذهنية حالما نكن على وعى لها ، ثم ان هذه المدركات الخرافية بغير مدلول حسى خارجى حتى نتمثله فى وعينا حالة ادراكنا له .. فانت حينما تقرأ خرافة أو حكاية غريبة من كتاب فى الأساطير أو الدين فانت بلا شك تدرك ما تقرأ دون أن يلازم ادراكك

لما تقرأ التصوير الذهنى للمقرؤ .. تدرك الفكرة أو المعنى دون ان تتمثله حسيا ... دون أن تتمثل مدلولة على هيئة تصوير ذهنى بالضرورة ، فالتصوير الذهنى ليس ضروريا فى جميع مظاهر نشاطنا العقلى ، ولو لم يكن كذلك لتعذرت مظاهر نشـــاطنا العقلى دون ان يصاحب وجــودها الشعورى شريط من التصورات الذهنية .

فنحن نستطيع ان نخبر بمدركات خيالية دون ان يعترينا تصورها الذهنى كأن نقول .. ان فلانا عفريت او شيطان أو ان فلانا زار الموتى ثم عاد ، أو ان فلانا حينما مات بكت عليه قططه وكلابه .. او كأن نقــول طاردت ذبابة فى الهواء ولم اتمكن من اللحاق بها او رأيت حمارا ازرق العينين يلبس خفين من الذهب ... الخ .

اننا نخبر بهذه الاقوال الخيالية دون ان يعترى وعينا لها تصورها الذهنى ... نقولها دون ان نتمثلها فى وعينا كتصورات ذهنية بالضرورة ، نحن ندرك تصويراتنا الخيالية دون ان نتصورها ، ومن ثم ، فان تصويرنا لها ـ حالة ادراكنا الخيالى لها ـ لايزيد شيئا فى وعينا لها عن عــدم تصويرها ... فحينما اقول مثلا : اننى امبراطور ولقــد كانت تربطنى صداقة مع نابليون ، فانا اعنى ما اقول ، لكن دون حاجة بى ـ خلال هذا القول ـ لتصوّر نالبيون فى وعيى او تصوير نفسى جالسا على عرش الأباطرة ومتزينا بلباسهم المهيب ... حتى أدرك ما اقول ، قد اتصور ذلك بالفعل ولكن دون ضرورة ، ومن ثم ، فان تصويرنا الخيالى لايفضى جديدا الى وعيى لخيالاتى .

فالتصوير الذهنى لاضرورة له فى نشاطاتنا الخيالية .. ليس هــو قوام هذه الخيالات .

لانستطيع فصل الجوانب الخيالية فى تصويراتنا العقلية ...

يستحيل علينا ان نفصل بين جوانب خيــــالية واخرى واقعية فى تصويرنا العقلى الماثل فى وعينا حالما ننظر لشيىء واقعى ونجرى عــلى تصورنا الذهنى له تعديلا خياليا ، اذ مادام تصــويرنا الذهنى باكمله ـ الماثل فى وعينا ـ ذا طبيعة حسية فلسوف يتعذر علينا ان نفصل الجوانب الخيالية التى الحقها تحريفنا الخيالى فيه عن تلك الجوانب التى استبقاها التعــــديل الخيــــالى من تصــــورنا الواقعى للشىء الخــــارجى ... فتصويرنا الخيالى ان كان ينهض على نفس الطبيعة الحسية التى ينهض عليها تصورنا الواقعى للاشياء الخارجية ، فلن يكون فى مقدورنا ان نفصل فى التصوير العقلى الواحد ـ الممتزج بعناصر خيالية واخرى واقعية ـ بين

هذه الجوانب الخيالية وتلك الواقعية ... وبتفصيل آخر ، ان وجود تصوير حسي واقعي في وعينا لشيء خارجي ووجود تصوير خيالي لهذا الشيء نفسه يمنعنا من ان ندرك ان الأول تصويرا واقعيا والآخر خياليا ، مادام التصويران لهما نفس الاساس المشترك ... نفس الطبيعة الحسية. فوجود التصوير الخيالي على هذا النحو الحسي سوف لايمنعنا من الاعتقاد بأن هذه الصورة الخيالية الماثلة في وعينا هي لذاك الموجود الخارجي الماثل امام حواسنا ... هي بعينها تلك التي نستقبلها بطريق الحواس ، وبانها صورة واقعية بدورها ما دامت مقومات التصوير العقلي الواقعي هي بعينها مقومات التصوير العقلي الخيالي ، واعني بهذه المقومات ، المقومات الحسية ... وهذا وهم واضح ، لاننا ونحن نتخيل فانما نكن على وعي من اننا كذلك ... وعلى وعي لجهة تصويراتنا العقلية ، وهكذا ، فالطبيعة الحسية المزعومة لتصويراتنا الخيالية تحيل بيننا وبين ان نكن على وعي لخيالاتنا ولجهة تصوراتنا العقلية .

يصبح تصويرنا الخيالي لاشعوريا ...

القول بوجود مخيلة في عقلنا بجانب الاعتقاد بوجود ذاكرة فيه ، يوجب ان يجري نشاطنا الخيالي من خلف الشعور .. اننا نستقبل مدركاتنا الحسية من الخارج او نستدعيها من الذاكرة ، فنحن اذن لانساهم شيئا في تشكيل مدركاتنا وخبراتنا الماضية ، فهي تأتينا جاهزة من الخارج عن طريق التجربة الحسية أو من الداخل عن طريق تداعيهما من الذاكرة ، ولايعقل هنا بالتالي ان تشذ مخيلتنا عن هذا النظام ، ولكي لاتشذ عنه ينبغي الا يكون في مقدورنا ان نزاول نشاطنا العقلي التاليفي بطريقة واعية ... فكلا مدركاتنا وذكرياتنا تأتينا جاهزة من الخارج او من الذاكرة ... فلماذا كان للمخيلة ما لم يكن لملكاتنا على التصور والتذكر ؟؟ فلكي يستقم عمل المخيلة مع عمل ملكات العقل الأخرى .. فينبغي الا يكون في مقدورنا تاليف تصوراتنا الخيالية تاليفا شعوريا ، ينبغي ان تأتينا تصوراتنا الخيالية جاهزة مثلما تأتينا مدركاتنا الحسية وذكرياتنا ، فان كانت لمخيلتنا تلك القدرة على التاليف الشعوري، فينبغي أن يكون ما لها ما لملكات التصور والتذكر بالتالي بحيث تكن نحن الذين نشكل هذه المدركات والذكريات . فلا تعد بنا حاجة لتصوراتنا الحسية ، ولحفظها في الذاكرة

... لاتعد ثمة حاجة بنا لملكة التصور والذاكرة .

ينبغي اذن ان تأتينا تصوراتنا الخيالية جاهزة مثلما تأتينا مدركاتنا الحسية من الخارج ، ومثلما تتداعى خبراتنا الماضية من الذاكرة ، ولكي

تكن كذلك ، فينبغى ان تكون قد تم تاليفها بطريقة لا شعورية .. فى معزل عن الشعور .

انا نجهل طبيعـة ذاكرتنا المزعومة وسر عملهـا ونظامها فى الحفظ والتداعى . فوجودها فى عقلنا وجودا لا شعوريا ، ومن ثم ، فلا ينبغى ان تخرج المخيلة ـ كملكة عقلية ـ فى طبيعة عملها عن هذا الاعتقاد الوهمى ، اعنى ، ان يتم تصوير خيالاتنا فى معزل عن وعينا لهذا التصوير ... وهـذا وهم واضح ... اذ لايمكن الاقرار بوجود نشاط عقلى لا شعورى فى عقولنا بينما ملكاتنا العقلية ملكات شعورية ، فان كان لدينا مثل هذا النشـاط العقلى الوهمى ، فينبغى ان تتوافر لدينا ملكات عقلية لا شعورية كهذه الملكات العقلية الشعورية التى نعرفها .. فهل توجد لدينا مثل هـذه الملكات اللاشعورية الى جانب ملكاتنا العقلية الشعورية .. !! ؟

رفض ملكة الفكر

والى جانب اعتقاد الناس بوجود ذاكرة ومخيلة فى عقولنا ، فقـــد اعتقدوا أيضا بوجود ملكة للفكر فينا ، والغريب ان الفلاسفة بأسرهم ـ وخصوصا ـ الفلاسفة العقليون ـ قد اخذوا بهذا الوهم ـ خصوصا ـ ليبحثوا فى طبيعته بدلا من ان يطرحوا وجوده العقلى المزعوم للشـــك ، فنظروا لطبيعة عمل هـــذه الملكة ـ ملكة الفكر ـ على انه ادراك للعلاقات غير المحسوسة القائمة بين المحسوسات الخارجية ، فقد كانت ملاحظتهم للظواهر الخارجية المحسوسة واخفاق حواسنا فى ان تطلعنا ـ حسيا ـ على الروابط القائمة بينها والمدركة لدينا سببا فى اعتقادهم بوجود ملكة فينا لادراك هذه الروابط أو العلاقات غير المحسوسة ... لادراك ما لم تستطيع الحواس أن تطل عليه .

ولقد كان موقف الفلاسفة العقليون غريبا حين اقاموا هذه الملكة المفكرة فى عقولنا الى جانب اعتقادهم بحقيقة ادراكنا الحسى ، لانهم وان اقاموا ادراكنا على الفكر ـ على مدركاتنا المجردة ـ الا انهم لم ينكروا وجـــود معطيات حسية فى عقولنا ، ولم ينكروا بالتالى وجود ذاكرة فينا لتحتشد فيها هذه المعطيات الحسية ، لقد كان متعذرا عليهم ان يقيموا نشـــاطنا العقلى باسره على الفكر المجرد ، ومن ثم ، كان اعتقادهم بادراكنا المجرد الى جانب ادراكنا الحسى أمرا ضروريا . لكن، الم يخطر ببال أولئك الفلاسفة العقليون ان ما لم تستطيع الحواس ان تطل عليه ، ينبغى لكى يكون مفهوما مدركا أن ندركه بحضور حواسنا ... بحضور ملكتنا على التصور الحسى الى جانب ملكتنا على ادراك العلاقات المجردة ؟؟ ومن ثم ؛ فلسوف يـكون ادراكنا للفكرة من خلال تصورنا الحسى للمحسوسات الخارجية التى ربطت بينها .. فنحن لانستطيع ادراك افكارنا مجردة خالصة فى غياب المحسوسات التى ربطت بينها فى الخارج .. نحن ندرك الفـكرة من خـلال تصـورنا الحسى لتلك المحسوسـات الخارجية التى ارتبط وجودها الخارجى بهذه الفكرة،وبغير حضورهذه التصورات الحسية فلسوف ندرك الفكرة بلاوجود خارجى أو لا ندركها مطلقا ، فالافكار التى ارتبط ادراكنا لهـا بحضـور مدلولاتها الحسية فى وعينا ، يتعذر علينا أن ندركها فى معزل عن هـــذه المدلولات الحسية التى صاحبت ادراكنا لها ، وبعبارة أخرى ، ان الفكرة التى ادركناها بحضور محسوسها الذهنى فى وعينا لاندركها فى معزل عن هذا المحسوس . اذ كيف يرتبط ادراكنا لفكرة ما بحضور مدلولها الحسى فى وعينا .. ثم لنستطيـــع أن ندركها فى غياب هـــذا المداول الحسى من وعينا ؟ .

وعلى ما سبق ، سوف يمتنع علينا الفكر المجرد الخالص ..
ولسوف اثبت فيما يلى ان وجود ملكة عقلية خاصة بادراك ما لم تستطع الحواس لان تطلعليه هووجود وهمى زائف كوجود غيرها منملكات العقل المزعومة .

افكارنا خيالات صرفة ...

الافكار المجردة ... او العلاقات ـ غير المحسوســـة ـ القائمة بين الاشياء الخارجية هى موضوع نشاطنا الخيالى مثلما هى موضوع ادراكنا الفكرى ... موضوع المخيلة مثلما هى موضوع ملكتنا المفكرة . وما دامت كلتاهما لها نفس الموضوع المشترك ، وهو ادراك العلاقات ـ غير المحسوسة القائمة بين الاشياء الخارجية المحسوسة ... او تصور اقامة مثل هـذه العلاقات المدركة بين تلك الاشياء الخارجية المحسوسة ، فان نشـــاطنا الفكرى هو فى طبيعته الذهنية خياليا صرفا ، اعنى نشاطا تؤدية المخيلة دون حاجة لافراد ملكة اخرى الى جانبها ـ أى ملكة الفكر ـ فالملكة التى تشكل افكارنا الخيالية هى بعينها التى تشكل افكارنا الواقعية خصوصا وان جهة الفكرة ـ واقعية كانت ام خيالية ـ لا تتحدد فى عقولنا ، وانما فى الواقع الخارجى المحسوس .. وحيث لايعقل أن تتواجد فى عقولنا ملكة ذات عمل اعتباطى خراف الى جانب اخرى ذات عمل منطقى واقعى .

فمدركاتنا العقلية سواء من حيث هى مدركات ... هى بدون جهـة فى ذاتها ، اعنى ، اننا لانستطيع ان نفصل فى نشاطنا العقلى بين مدركات واقعية واخرى خيالية فى معزل عن احساسنا المباشر للواقع الخـــارجى المحسوس فالواقع الخارجى ـ من حيث هو جهة ـ لا وجود له فى عقلنا كفكره مدركة أو تصورا حسيا ، بحيث نمارس نشاطنا العقـلى من خلاله مثلما نمارس هذا النشاط فى حضور احساسنا المباشر له فى الخارج .. فانا الآن افكر من خلال احساسى المباشر لوجودى فى عالم واقعى ... عالم الاشياء الخارجية المحسوسة حولى ، ولكنى لا استطيع التفكير من خلال احساسى الذهنى لفكرة او تصور وجودى فى عالم واقعى ، لان الواقـــع الخارجى ـ من حيث هو جهة ـ لا يمكن نقله الىداخل وعينا كفكرة مدركة أو تصور حسى ، فتفكيرنا العقلى ممكن لنا من خلال وجودنا فى الواقـــع الخارجى المحسوس ... من خلال احساسنا المباشر لهذا الوجود ، بينما هو غير ممكن من خلال تصورنا لوجودنا فى هذا الواقع المحسوس ، وبعبارة اخرى ، فان تفكيرنا ممكنا من خلال الاحساس وليس ممكنا من خـــلال ادراكنا لهذا الاحساس .

وكما لا وجود للواقع ـ الجهة ـ فى وعينا فلا وجود لأفكار تحمل هذه الجهة فى هذا الوعى فى مقابل افكار لا تحملها .. فمدركاتنا سواء من حيث هى مدركات .. فهى بدون جهة فى ذاتها ، ومن ثم ، فان ملكة تكوين هذه المدركات ـ تكوين الافكار ـ هى واحدة بعينهـا ولا يمكن افراد اكثر من ملكة عقلية واحدة لتكوينها .. فلا ملكة للفكر بجانب ملكتنا على التفكير الخيالى .

امتناع الفكر بدون تصورات ذهنية ...

تفكيرنا لايخلو من تصورات ذهنية تصاحبه ... حتى فى اكثر العلوم تجريدا واعنى بها الرياضة البحتة ... فنحن ـ فى هذا العلم ـ لايخلو تفكيرنا من تصورات ذهنية للخطوط والارقام والاشكال الهندسـية ، فالتفكير العقلى لا ينهض على الأفكار المجـردة فحسب كما غلا فى ذلك خصوصا الفلاسـفة المثاليون الألمـان وانما يعتمـد أيضـا ولكن دون ضرورة ـ على التصورات الذهنيـة ، واقول دون ضرورة لأنه ان لم يكن لنا غنى عن هذ التصورات الذهنية لكى نفكر فسوف لن تكن لنا غنى عنها فى جميع احوال تفكيرنا .. ولسوف يعتمد تفكيرنا بالتالى على هذه التصورات الذهنية وهذا باطل .

والتصور الذهني ـ كما تعلمناه ـ مخصوص بملكتنا عليه ، وهى ملكة التصور ... ملكة تصور أو استيعاب الاحساس الخارجى فى وعينا ، بينما ملكة الفكر ـ كما حددها الفلاسفة العقليون ـ غير ملكة التصـور ، فهى ملكة ادراك العلاقات المجردة ـ غير المحسوسة ـ بين هذه التصورات الحسـية .. ملكة ادراك مجرد وليست ملكة ادراك للمحسـوسات الخارجية التي ترتبط بهذه العلاقات المجردة ، فلو قلت بأن حشرةالبعوض هى سبب مرض الملاريا فان ملكة الفكر فينا ستدرك السبب كفكرة مجردة دون أن تدرك احساس البعوضة او الأعراض المحسوسـة لمرض الملاريا ، فالبعوضة إحساس يمكننا تصوره بملكتنا عليه .. بملكة التصور ، وهو مدرك فى عقولنا بهذه الملكة دون غيرها ، والملاريا مرض له اعراض محسوسة يمكننا تصورها أيضا بنفس ملكتنا على التصوير الحسى (الذهنى) فملكتنا على الفكر سوف لن تدرك سوى العلاقة المجردة، لكن دون ان تدرك وجودها بين هذه المحسوسات (التصورات) ... تدرك السببية دون أن تدرك وجودها الخارجى .. تدرك السببية كفكرة لكن دون ان تدركها قائمة بين حشرة البعوض ومرض الملاريا ، ولكى تدركها كذلك ، فينبغى أن تتآزر فى وعينا حالة الادراك ملكتين عقليتين ـ فى نفس الحالة من الادراك بعينها ـ وهما ملكتا التصور والتفكير معا .. وهذا وهم واضح .

سوف يتعذر علينا الفكر نفسه ...

فكرنا المدرك ـ كما أوضحنا ـ لا ندركه مجردا خالصا ، لأننا ان اعتمدنا على الفكرة الخالصة فى ادراكنا فسوف لن ندرك لها وجودا خارجيا ، ولكى ندرك لها هذا الوجود ، ينبغى أن ندرك فى وعينا بحضور
خارجيا ، ولكى ندرك لها هذا الوجود ، ينبغى ان ندرك فى وعينا بحضور
المحسوسات التى ربطت بينها هذه الفكرة فى الخارج .

والذاكرة هى مستودع حفظ هذه المحسوسات ، ومن ثم ، فنحن فى كل حالة تفكير ينبغى علينا ان نستدعى الى شعورنا ـ من الذاكرة ـ هذه المحسوسات التى ترتبط بافكارنا المدركة ، لكن ملكتنا على الفكر ليس فى مقدورها ان تستدعى هذه المحسوسات ، فهى ملكة ادراك مجرد وليست ملكة ادراك حسى ... هى اذن غير قادرة على استدعاء ما تجهله أو ما لا تدركه، ومن ثم ، سوف لن نقدر على الفكر بملكة الفكر وحدها .

فلو قامت ملكتنا على الادراك الحسى ـ ملكة التصور ـ باستدعاء هذه الاحساسات القائمة فى الذاكرة الى شعورنا ، فلسوف تستدعى احساسات مفتتة دون فكرة تجمعها ، لأن هذه الملكة بدورها ملكة تصور حسى وليست ملكة ادراك مجرد ... ليست ملكة ادراك للعلاقات المجردة التى ترتبط بها الاحساسات المستدعاة ، ومن ثم ، فلسوف تأتينا هذه الاحساسات مفتتة بلا فكرة تجمعها ، لأن ملكة التصور هى ملكة استيعاب المحسوس لا المعقول ..

فلو تضافرت الملكتان العقليتان ـ ملكتا التصور والتفكير ـ معا فى الادراك ، فلسوف يكون فى مقدورنا ان نزاول نشاطين عقليين فى حالة ادراك بعينها ... فيكون لدينا حالتا وعى منفصلتين فى حال ادراك عقلى بعينه .. وهذا وهم واضح . فملكتنا المزعومة على الفكر لاتقوى على الفكر .

رفض فكرة الشعور

يرى علم النفس الحديث أن عقلنا ليس بأكمله واعيا مدركا وانما جانبا منه فحسب هو القادر على الوعى والادراك ، اطلق عليه علماء النفس اسم الشعور فى مقابل الجانب الآخر غير الواعى الذين أسموه باللاشعور ... وفكرة الشعور تتوافق تماما مع الاتجاهات التجريبية فى نظرية المعرفة ويكاد لا تتوافق مطلقا مع الاتجاهات العقلية التى أقامت حياتنا العاقلة باسرها على الفكر المحض ، ومع ذلك ، فان احدا من الفلاسفة العقليون لم يعمد الى رفضها .

فالشعور ــ وهو الجانب الواعى من عقلنا ــ نستطيع ان نستقبل فيه معطيات التجربة الحسية وندركها .. كما نستدعى فيه جميع خبراتنا الحسية الماضية والمختزنة فى ذاكرتنا .

ولقد أخذت هذه الفكرة طابع الحقيقة المؤكدة ــ خصوصا فى ايامنا هذه ــ بعد الابحاث التى قام بها عالم النفس النمساوى فرويد ، وأخضع فيها ظاهراتنا السيكلوجية لأسباب لا شعورية ... لأسباب توجد فى عقولنا دون أن نعلمها ، فأقام بذلك حاجزا بين ظواهرنا السيكلوجية المعلومة وبين اسبابها غير المعلومة ... بين الظاهرة الشعورية واسبابها اللاشعورية .

ولقد اجتهد علماء النفس المحدثين والمعاصرين فى اثر فرويد فاقاموا بحوثهم الباثولوجية وتجاربهم الاكلينيكية انطلاقا من هذه الفكرة .. فصوروا فينا شعورا اشبه بسطح مائى لبحر متبدل الأحوال هادئا تارة ومتموجا صاخبا فى اخرى او تجوبة الدوامات البحرية وتعصف به الرياح العاتية .. متاثرا فى جميع هذه الأحوال بما يجرى فى مجاهل اعماقه ..

وفيما يلى سوف اقضى على هذا الفكر الفاسد ..

شعورا آخر الى جانب الشعور ...

المدرك الشعورى لا يمكن ان يكون موضوعا لنشاطنا العقلى .. لفكرنا أو خيالنا مثلا ، لان الشعور ــ فى هذه الحالة ــ هو شعورا للمدرك الماثل فيه وليس شعورا لنشاطنا العقلى الى جانب هذا المدرك الشعورى موضوع النشاط العقلى ، وبالتالى ، فنحن اما ان نكن على شعور لهذا المدرك الشعورى أو ذاك النشاط العقلى الشعورى ، ولا نستطع ان نكون على شعور لهما معا ... اذ يستحيل أن يكون مدركا ماثلا فى شعورنا موضوعا

لنشاطنا العقلى الفكرى او الخيالى لان التفكير فى المدرك الشعورى هو شعورا آخر الى جانب الشعور بالمدرك نفسه ... بينما الشعور بالمدرك فحسب مزل لنشاطنا العقلى خارج الشعور .

وبتفصيل آخر ، ان الشعور هو شعور لتصوير ذهنى ماثل فيه ، ولكى يكن هذا التصور المدرك موضوعا لنشاطنا العقلى ، فينبغى أن نكون على وعى لهذا النشاط الى جانب وعينا للتصور الذهنى المدرك الماثل فى شعورنا ، بحيث يتوافر لنا شعوران أو وعيان فى حالة ادراك عقلى بعينها .. يكون لنا شعورا آخر الى جانب شعورنا بمدركاتنا العقليـــة ، حتى نتمكن من ممارسة نشاطنا العقلى ، فنذكر خبراتنا الماضية الى جانب وعينا لكوننا نتذكر ، بحيث ندرك ونتذكر فى آن واحد ... وندرك موضوع فكرنا الى جانب ادراكنا لنشاطنا الفكرى ، فندرك ونفكر فى آن واحد .. ينبغى اذن أن تكون ملكاتنا على النشاط العقلى شعورية الى جانب مدركاتنا الماثلة فى الشعور ، فالشعور هو شعور للمدرك الماثل فيه الى جانب شـــعورنا لنشاطنا العقلى حين يتخذ من هذا المدرك موضوعا له فيكون لنا شعوران فى حالة ادراك عقلى بعينها ... وهذا وهم .

يصبح نشاطنا العقلى مجهولا ...

الشعور ــ كما اوضحنا ــ هو شور لمدرك ماثل فيه وليس شـعورا لنشاطنا العقلى الى جانب هذا المدرك .. والا ، فلسوف يكن فى مقدورنا ان نمارس نشاطنا العقلى فى معزل عن شـــعورنا ... فلكى تكن على وعى لنشاطنا العقلى الى جانب وعينا للمدرك الماثل فى شعورنا ، فلسوف تكن فى قدرة على ممارسة هذا النشاط العقلى فى معزل عن وعينا للمدرك المـائل فى شعورنا ، بحيث نفكر او نتذكر أو نتخيل الى جانب وعينا للمدرك المـائل فى وعينا ... يكون لنا عقـــلان ، عقل شعورى مدرك وعقـــل مفكر .. وهذا وهم .

فالشعور اذن هو شعور للمدرك الماثل فيه دون غيره ، وعليه ، سوف يظل نشاطنا العقلى لا شعوريا فى حضور هذا المدرك الشعورى .. سوف نفقد وعينا للملكاتنا العاقلة حالمـا تكن على وعى لمدرك ماثل فى شـــعورنا ، وبالمثل فلكى تكن على وعى لنشاطنا العقلى فينبغى ان نفقد وعينا لمدركاتنا، فالوعى بهذا النشاط العقلى ــ لهـــذه الملكات العقلية ــ وعى لمدركاتنـــا العقلية .

فالادراك الشعورى يعزل نشاطنا العقلى عن هذا الشعور .. يصبح نشاطا مجهولا بحضور ادراكنا ، ومن ثم ، فلسوف تكن على وعى للمدرك

دون ان نكن على وعي لادراكنا له .. على وعي للفكرة دون ان نكن على وعي لكوننا نفكر ... وعلى وعي لتصويرنا الخيالى دون ان ندرى ان ثمة ملكة عقلية فينا تتخيل .. وهذا وهم واضح .

تعقل ... بلا شعور ...

فكرة الشعور عند اصحابها هى ذاك الجانب الواعى من حياتنا العاقلة ، الذى نستقبل فيه معطياتنا الحسية أو تتداعى اليه هذه المعطيات الحسية المدركة من الذاكرة فهذه الفكرة ترتبط ارتباطا وثيقا بالفكر الفلسفى التجريبى .

ولقد أوضحت فيما سبق ان نشاطنا العقلى باختلاف ظواهره يمكن ان يتم فى عقولنا بلا تصورات ذهنية ، فبامكاننا ان ندرك او نتذكر او نتخيل أو نفكر دون حاجة بنا الى مثل هذه التصورات الذهنية .... حسية كانت ـ فى طبيعتها ـ ام غير حسية ... دون ان تعترى عقولنا تصورات معينة ، وما دمنا كذلك ، فنحن انما نمارس نشاطنا العقلى فى معزل عن الشعور ... اننا لم نعرف الشعور الا من خلال تواجد تصورات ذهنية فى عقولنا خلال نشاطاتنا العقلية ، لكن هذه التصورات او المحسوسات الذهنية سرعان ما تتبدد فى وعينا حالما نكف عن هذا النشاط العقلى ، فلا نعد ندركها أو ندرى عنها شيئا ، فاعتقد الناس ان ماكنا نراه ماكنا لنراه الا حيثما رايناه واننا ماكنا لندرك هذه التصورات الذهنية لو لم تتواجد فى هذا الجانب الواعى المزعوم داخل العقل والذين اطلقوا عليه اسم الشعور فى مقابل الجانب الأخر الذى تذهب التصورات الذهنية لتختفى فيه بعيدا عن شعورنا ، وقد اطلقوا عليه الجانب اللا شعورى ... ففكرة الشعور ترتبط ارتباطا وثيقا بادراكنا الحسى ، وهى بذلك تمنع ان يكون فى مقدورنا ان نعى مدركاتنا او افكارنا ما لم يأخذ وجودها فى وعينا الطابع التصويرى الذهنى ... فنحن اما ان ندرك افكارنا مجردة فلا تعد ثمة ضرورة لفكرة الشعور المزعومة ، واما أن ندركها ـ افكارنا ـ تصويرات ذهنية بالضرورة ، وهذا وهم ، لأن هذا الادراك مخالف فى الحقيقة ـ لطبيعة ادراكنا ونشاطنا العقلى .

الفصل الثالث

طبيعة العقل المحض

الخلق من العـــدم

الفـــكر

اننا ندرك افكارنا كتكوينات عقلية فى حينها ، اعنى ، فى حين ادراكنا لها ومع ذلك ، فنحن لاندرك فكرا فحسب وانما ندرك تصوراتنا الذهنية التى تكونها فى حينها ايضا ... فى حين تصورنا لها ، وكلتا هـــذه الافكار والتصورات الذهنية لاوجود لها محدد وثابت داخل العقـــل او الذاكرة والادراك الانسانى ينهض عليهما معا ولاينهض على احدهما دون الأخر ... فكما يمكن ان يخلو وعينا من تصوراتنا الذهنية حين ندرك او نفكر فان من الممكن ان يخلو وعينا من فـــكرنا المجرد حين نتذكر او نتخيل ولقد اخطأ الفلاسفة العقليون مثلما أخطأ التجريبيون .. لأن كلا هؤلاء واولئك اقاموا ادراكنا العقلى اما على الفكرة الخالصة بعد أن حددوها ثابتة فى عقولنا ، واما على التصور الذهنى بعد رأوه احساســـا صرفا .. فجميعهم كانوا مفرطين ممعنين فى الخطأ ، اخطأوا فيما ذهبوا اليه وفيما وقعوا فيـــه من تخبط وتناقض . ومن هـــذا التناقض ما وقع فيه بعض الفلاســـفة التجريبيون والعقليون على السواء واخص منهم الفيلسوف الانجليزى لوك حين اعتقد بوجود معان سابقـــة على التجربة الحسية فى عقـــولنا الى جانب ادراكنا الحسى .. كما كان اعتقاد الفلاسفة العقليون بوجود ذاكرة فى عقولنا الى جانب اعتقادهم بقيام ادراكنا العقلى على الفكر المحض تناقضا صارخا فى سير التفكير العقلى البحت عند فلاسفة العقل ابتداء من افلاطون ومرورا بديكارت حتى هيجل .

المثاليون الألمان ..

ـ كما أوضحت ـ فانا لا انكر اننا ندرك فكرا مجردا ، لكنني انكر أن يكون فكرنا المجرد اساسا وحيدا لادراكنا العقلي ، او ان تكون افـــكارنا المجردة تكوينات عقلية ذات وجود حقيقى ثابت ومحدد داخل العقل . ولقد افرط الفلاسفة الألمان خصوصا فى هذا الصدد ، اعنى ، حين اقاموا الوجود بأسره علي الفكر البحث .

والحق ، ان الفلاسفة المثاليون الألمان - فخته وشلنج وهيجل - ما كانت لتجيء فلسفاتهم بهذا الافراط الا فى أعقاب فيلسوفهم الأكبر كانط ... فقد انتهى هذا الفيلسوف الى الاعتقاد باننا نكون افكارنا عن الاشياء الخارجية من خلال حضور معطياتها الحسية الى وعينا ، فهو اذن لم يقل باننا نكون فكرا محضا وانما نكون مدركات حسية من معطياتها المفتتة والمختلطة .. هو لم يقل باننا نكون فكرا مجردا - كما ذهبوا هم - وانما نكون تصويرات حسية من خلال توافر معطياتها التجريبية داخل وعينا ، فالمقولات الكانطية مقولات تصوير حسى وليست مقولات تكوين فكرى مجرد . فالفلاسفة المثاليون الألمان قد اخذوا بافكار كانط بعد ان حرفوها أو لعلهم لم يعوها وعيا دقيقا ، فكانط لم يكن فيلسوفا عقليا خالصا ، لأن عمل المقولات الكانطية - مقولات الادراك - لايبدأ الا بتوافر معطياتنا التجريبية فى وعينا ... لكى نكون منها مدركاتنا الحسية ثم لتتجه هذه المدركات الحسية المكونة بالتالى الى الذاكرة التى يبدو وجودها امرا ضروريا .

ومع أن كانط قد افرد مقولات لادراك الفكرة المجردة خلاف مقولات ادراك الاحساس - مقولات الزمان والمكان - الا ان ادراك هذه الافكار المجردة لايتم الا من خلال احساسنا الذهنى لمحسوسها الخارجى ، فنحن لانستطيع أن نحدد اضافات الموجود المدرك الا من خلال وجوده حسيا فى وعينا ، فالفكرة المجردة لاتدرك فى غياب احساسنا العقلى لوجودها الخارجى ، ولقد سبق لى ان أوضحت اعتراضى على فلسفة كانط ، فاظهرت تناقضها وبطلانها ، اذ لايمكن تكوين مدركات حسية من معطياتها المختلطة لانها مجهولة ... ولكن ننظم هذه المعطيات المختلطة المجهولة فى احساسات معقولة ، ينبغى ان نكن على وعى لهذه المعطيات قبل تنظيمها ... على وعى لمعطيات غير منظمة قبل ان ننظمها وندركها ، فندركها قبل ان ندركها ، ندركها دون حاجة لمقولات ادراكها .. اننى حين أنظر لشيء لا ادركه ، فلكى ادركه فأنا لا اصوره فى وعيى كما ادركه ، لأن هذا يعنى اننى ادركه قبل أن أدركه وهذا باطل .

ثم ان كانط - فى الحقيقة - قد استعاض عن ملكتا التصور والتفكير بمقولات عقلية من ابداعه ، فقد جمع فى مقولاته جميع الوظائف التى تقوم بها ملكاتنا على التصور والتفكير ، فمقولات كانط هى مقولات النشاط العقلى باسره ... وهذا وهم .

فالفلاسفة المثاليون الألمان اذن قد اخطأوا حين جروا فى اثر كانط .. واخطأوا حين انطلقوا من تحريفهم لهذه الفلسفة الخاطئة .

ديكارت ..

ولقد اخطأ ديكارت حين زعم ان فينا فكرا جاهزا فطريا ، ولقــد اوضحت فيما سبق رفضى القاطع لكل زعم بوجود هذه الأفكار الفطــرية فى عقولنا .

وفى تقديرى ، أن ديكارت كان أكبر فيلسوف لاهوتى جاء فى أعقاب القرون الوسطى الأوروبية ، ولم يفلت اطلاقا من تأثير الفكر الكنسى عليه ، فقد كان يرمى من وراء إعتقاده بوجود افكارا فطرية فينا الى وضع تبرير عقلى لاعتقادته الدينية مخالفا لاتجاهات فلاسفة الكنيسة الذين بحثوا عن أساس نقلى لاعتقاداتهم . ثم ان القول بوجود ذاتية مفكرة ، لا يستقم مــع القول بوجود فكرا فطريا حاضرا فى عقولنا ، فالذاتية المكونة للافكار ليست بحاجة لافكار جاهزة تفطر عليها ، ولو كنا بحاجة لمعونة فطرية لكى ندرك ، لكان ينبغى أن نعتمد على مثل هذه المعونة فىجميع أحوال ادراكنا العقلى... فنظل على صلة روحية بذاك الغيب الذى امدنا بمعانينا الفطرية المدركة وما لبث يواصل امداده المعين لنا على الادراك ، وعليه ، فيجب أن تكون جميع مدركاتنا فطرية أو موحى بها فتأتينا جاهزة فى جميع احــوال ادراكنا ، وهذا ما ذهب اليه بعض رجال الدين المسيحى بالفعل فى القرون الوسطى الأوروبية .

ثم ... اليس سحقا للموجودات الفائقة ان توضع جنبا الى جنب فى وعينا ــ من حيث هى مدركات ــ ... !! بعد ان سواها الفكر الديكارتى بغيرها من المدركات الأخرى فى وضعها العقلى !! ؟

الفكرة .. من العدم ..

اننى لا انكر اننا ندرك فكرا ، لكننى انكر ان يكون هذا الفكر المدرك ذا وجود ثابت محدد فى عقولنا ، فالفكرة لاتتواجد فى وعينا الا حالة تواجدها فى هذا الوعى ، اعنى حالما نكن على وعى لها ولا وجود لها فى عقولنا فى معزل عن هذا الوعى .. فالفكرة التى تتواجد فى وعينا حال ادراكنا لها لا وجود لها فى عقلنا فى غيابها عن وعينا المدرك لها .. لاتتواجد فى وعينا الا حال تواجدها بالفعل فى هذا الوعى .

اذ ما دمنا نحن الذين نكون أفكارنا بذاتيتنا المفكرة ، ينبــغى أن نكون قادرين على تكوينها فى جميع أحوال ادراكها ، دون ان تكن ثمة حاجة لبقائها حاضرة فى عقلنا لكى ندرك أو نفكر ، فالفكرة المدركة فى وعينا لم يكن لهــا وجود سابق فى عقلنا قام عليه ادراكنا لها فى وعينا ، وانما نحن بذاتيتنا

المفكرة قد كوناها فى حينها . . . فأفكارنا تكوينات عقلية ــ وهذا ما لا يعترض عليه الفلاسفة العقليون ــ فهى تكوينات بفعل ذاتيتنا المكونة لهذه الافكار ، ومن ثم فنحن قادرون على تكوين افكارنا باستمرار دون حاجة بنا لتواجدها محددة فى عقولنا لكى ندرك ــ وهذا ما اخالف به جميع فلاسفة العقل ــ لاننا لو لم نكن كذلك . . لو لم تكن تكون افكارنا فى حينها ، لكنا بغير ذلك ، اعنى ، لما كنا قادرين على تكوين افكارنا قبل أن تتحدد فى عقولنا ، فقدرتنا على تكوين افكارنا هى قدرة دائمة على تكوينها فى كل حين ندركها فيـــه ، فنحن نكونها من العدم حالما نكن على وعى لها ، ولا وجود لها فى غيابها عن هذا الوعى ، فهى تتلاشى الى العدم حالما يكف هذا الوعى عن تعلقه بها .

فنحن نكون افـكارنا بعد ان لم تـكن . . . نخلقها فى وعينا ــ حالما تتواجد فيه من العدم ، وتتلاشى اليه ــ الى العـــدم ــ حالمـا تختفى من وعينا ، أعنى ، حالمـا يكف وعينا عن تعلقه بها . نحن نفكر مثلما يخلق الله الذى ارادنا على مثاله ان نكون ، فهو خالق للاشياء من العدم ، ونحن نخلق افكارنا عن هذه الاشياء من العدم ، ان لنا اعجاز حقيقى . . !! لم لا !؟ لم لا نعتقد بهذا الاعجاز القائم فينا ونحن نعتقـــد باعجاز منقول ؟ اعجاز اخبرونا به دون ان نحياه مثلما نحيا حياتنا العاقلة فى اعجازها ، لقد اعتقدنا بالاسراء والمعراج كما اعتقدنا بتجســد الله واحيـــاء الموتى ، ومثلما اعتقدنا بمحادثة الله فى سيناء . . فلماذا لا نعتقد باعجازنا كما نحياه، بينما نعتقد باعجاز الغير المنقول . . . ؟ .

الصور الذهنية

وكما نخلق افكارنا من العدم بعد ان لم تكن .. بعد ان لم يكن ثمة وجود لها محدد داخل العقل ، فنحن نخلق تصوراتنا الذهنية من العدم ايضا ... تكونها في حين وجودها في هذا الوعي .

فالنشاط العقلي وان كان يجري — احيانا — معتمدا على الفكر الخالص الا انه يجري في حالات أخرى معتمدا على التصورات الذهنية البحتة ... فأنت قد تقرأ صفحة كاملة من كتاب وتفهمها دون ان يلاحق ادراكك لما تقرأ شريط من التصورات الذهنية ... لكنك قد تتأمل مشهدا في ذهنك دون ان يصاحب تأملك له وعيك لفكرته ، لأن مجرد تواجد التصوير الذهني في الوعي يعني ادراكه ... يعني انه تصوير مدرك ، لأنه لو لم يكن مدركا لما امكنك تصوره في ذهنك ، وحيث لا ضرورة لادراك التصوير الذهني في وعينا ان نكون على وعي لفكرته ، لاننا لو لم نكن ندركه لما استطعنا تصويره في وعينا ، فهو ماثل في وعينا لأنه مدرك ... دون فكرته ، فنحن مثلما نستطيع مزاولة نشاطنا العقلي بلا تصورات ذهنية تلاحقه ، فاننا نستطيع مزاولة هذا النشاط عينه بالاعتماد على هذه التصورات الذهنية ، فالتصورات الذهنية لاغنى لنا عنها في اعمال العقل، ومع ذلك ، فهي وحدها ليست اساسا للعمل العقلي مثلما لم يكن الفكر اساسا له .

الفكر التجريبي ..

لايمكن الأعتماد عليها وحدها في تفسير نشاطاتنا العقلية ، كما تبدى خصوصا لانصار المذهب التجريبي في المعرفة حين نظروا لهذه التصورات الذهنية نظرة حسية خالصة ، اعني انهم صوروا طبيعتها تصويرا حسيا ثم اقاموا على تصورهم هذا مختلف جوانب حياتنا العاقلة ، ولقد سبق لي أن أوضحت سوء نظرتهم المذكورة وفندت مزاعمهم التعسفية ، فالتصورات الذهنية التي تصاحب فكرنا في غالب احوال نشاطنا العقلي ليست ذات طبيعة حسية وليست اساس ادراكنا الوحيد ، ونحن أن كنا ندركها ذات كيف ، اعني ، ان يكون لوجودها في وعينا ذلك الطابع الكيفي الذي نراه لها في الخارج ... الذي لمدلولها الحسي الخارجي ، الا ان الكيف الداخلي المدرك وان كنا ندركه بمثل ما تشاهده حواسنا في الخارج ، الا انه ليس من جنس ذلك الكيف الخارجي المحسوس أواثرا ضعيفا له . .ان ادراكي « للخضرة » مثلا ككيف خارجي محسوس ، ان كان يأخذ طابعا حسيا في عقلي ، لكان على حين اصور شجرة خضراء في وعيي ان لا اقدر على

تصوير شيء آخر أخضر الى جانبها ... كأن اصورها وسط حشـــائش خضراء او حديقة من الاشجار الخضراء ، لأن ادراكى الحسى للخضرة سوف احمله بكامله على الشيء الذى صورته اخضرا فى البداية ـ واعنى بهالشجرة الخضراء ـ بحيث يستنفذ تصويرى لشجرة خضراء واحدة ادراكى للكيف الاخضر بكامله ، فلا يعد فى مقدورى بالتالى ان اصور شيئا آخر اخضر الى جانبها .. وهذا وهم .

ولا يعقل ـ هنا ـ ان يـــكون فى عقلى عـــديد من الكيفيات الخضراء المدركة لكى تمكننى من متابعة التصوير ، اذ ربما قل عدد هذه الكيفيات الخضراء المدركة عن تلك الاشياء التى تتطلب التصوير ، وعديه ، فلسوف تنتهى ملكتى على التصوير الى حد لاتقوى فيه على التصوير بعد ان استنفذ تصويرها جميع كيفياتنا المدركة !. وهذا وهم ..

الميتافزيقا ..

كيفنا المدرك هو مثل ذاك الكيف الذى صوره الله فى البدء فيه بعـد ان لم يكن ، ولو لم يكن تصوير هذا الكيف بغير الطبيعة الحسية المزعومة له لاستحال ان يكون مخلوقا ، لكان هذا المحسوس موجودا ازليا ، لأنه ان كان ضروريا للاحساس لكى يدرك ان يستوعبه فى العقل ، فليس من الممكن أن يكون له وجود فى الذهن قبل وجوده فى الخارج ، اعنى ، يستحيل ادراكه فى معزل عن وجوده الخارجى » .

ومن غير الممـكن أن يكون الاحســـــاس مخلوقا من العدم فى الروح الالهى ... كفكرة ثم ليدفع خارج هذه الروح ، لأن وجوده فى الروح الالهى سيكون وجودا متجسما قبل تجسمه الخارجى بحيث يســــتحيل الروح الالهى الى عالم للموجودات المخلوقة فيه ، أو يغدو كما صـــوره اسبينوزا وجها واعيا للوجود المحسوس .

بينما لو كان وجود الاحساس فى الروح بغير ذاك الكيف المحسوس ... بغير الطبيعة الحسية المزعومة له ، لكان ضروريا أن يكون ادراكه ـ سواء كان ادراكا بشريا أم الهيا ـ ادراكا روحيا صرفا .

تصورات ... من العدم ...

تصوراتنا الذهنية لاتتواجد فى عقولنا الا حالما تكن على وعى لهـــا ولا وجود لها فى غيابها عن هذا الوعى ، فنحن نكونها فى حينها ثم لتعـــدم فى نفس الحين الذى نكف فيه عن تصورها .

اننا ندرك مشاهداتنا الحسية دون ان نتصورها فى وعينا بالضرورة ، لكننا نستطيع أن نتصورها ، وما دمنا كذلك .. اعنى ، ان نتصور مدركاتنا دون أن يكن ادراكنا لها ملزما لنا بتصورها ، فهى اذن من تكويننا ... من خلقنا نحن ولم لم تكن من خلقنا لكان علينا لكى ندركها ان يكون ادراكنا لها ملزما لنا بتصورها فى وعينا ، بينما نحن ـ فى الحقيقة ـ ندرك بلا تصورات ذهنية تلاحق هذا الادراك ... نزاول نشاطنا العقلى دون ان يمر فى وعينا على هيئة تصـــويرات ذهنية . وكما نحن قادرون على الادراك عقليا ـ كموجودات عاقلة ـ فنحن قادرون على التصوير العقلى ، لأن التصـــور العقلى شرط ضرورى لقدرتنا على الادراك ، فان كانت لنا قدرة عقلية على الادراك فان لنا بالتالى قدرتنا العقلية على التصور العقلى ، ونحن كمـــا لا نستطيع تحديد مدركاتنا (أفكارنا) العقلية بحيث نأتى الى هـــذا العالم ونحن مزودين بأفكارنا عنه فنحن لا نقوى على تحديد تصورنا الذهنى لهذه المدركات ... لا نستطيع تحديد تصورنا لوجودها الخارجى المحسوس قبل مجيئنا الى هذا العالم لأننا لسنا نحن الذين صورنا وجـــودها الخارجى المحسوس .

لا وجود ـ اذن ـ لتصورات ذهنية محددة فى عقولنا ، فنحن نكون هذه التصورات الذهنية حين وعينا لها ولا وجود لها فى عقولنا فى غيابهـــا عن هذا الوعى . تصورات نكونها بعد ان لم تكن .. من العدم ، وتتلاشى اليه ـ الى العدم ـ حالما نكف عن تصورها .

المخلية جوهر العقل

رأينا ان حياتنا العقلية با ختلاف ظواهرها لم تستقم مع الاعتقـاد بوجود ملكات عقلية فينا ، لكن ما هى طبيعة عقلنا اذن بعد أن رفضـنا ملكاته ؟ .

ارى ان المخيلة ـ بغير معناها انتقليدى ـ هى جوهر عقلنا الانسانى ، اعنى ، ليست تلك المخيلة التى تعلمناها كملكة عقلية الى جانب غيرها من ملكات العقل الأخرى ... والتى لاتفيدنا فى اعمال الادراك والتفكير العقلى مادامت ثمة ملكات اخرى مخصوصة بهذا الادراك وذاك التفكير ... ليست تلك المخيلة المخصوصة بنسج الاساطير والخرافات .

فلقد تبدى لى من خلال تاملى لظواهر عقلى ... من خلال ملاحقتى لها وحضورى الفورى خلفها ... أو ان اعيد تصويرها من جديد بعد ان مرت ... فاتاملها بدقة وعمق ، تبدى لى ان من الوهم اخضاع تفسـير هذه الظواهر الخيالية ـ وقد اعطيتها قسطا كبيرا من مطارداتى وتأملاتى ـ لاى من الاتجاهات الفلسفية ، أو ان يعتمد تفسيرى لها على نظرتى لها فى ذاتها كظواهر ذات دلالة خاصة ، اعنى ، تؤديها ملكة عقلية خاصة ألى جانب غيرها من الكلمات العقلية الأخرى .

لقد استعنت بتصورات الفلسفة التجريبيـة دون جدوى ، ثم ما لبثت أن استعنت بتصورات الفلاسفة العقليين ، ولـكن بلا طائل ، ثم نظرت للمخيلة على انهاملكة خاصة لا تجتمع فى عملها مع اى ملكة أخرى من ملكات العقل عن طريق تعقب ظواهرها ، والى الحد الذى نظرت لها فيـه على انها عقلا مستقلا داخل عقل واقعى ، فلم أر فائدة .

واخيرا نظرت لها من الخلف ، فوجدت أن من اليسير على ان أرد جميع ظواهر العقل باسرها للمخيلة بعد ان ارفع عنها سمتها الخرافيـة لاجعل منها عين العقل الخلاق المبدع .

ذكرياتنا خيالات صرفة ...

لقد مر بنا كيف استعصى علينا تفسير تصوراتنا الخيـالية بجانب اعتقادنا بوجود مدركات حسية مختزنة فى ذاكرتنا ، حيث لاسبيل للتصوير الخيالى من خلال اعتقادنا بالفكر التجريبى ... اذ لو كان ممكنا لمدركاتنا الحسية ان تكون موضوعا لتصويرنا الخيالى ، فلسوف يتعذر علينـا التصوير الخيالى نفسه ، لأن نشاطنا الخيالى نشاطا واعيا ، ولكى يكن

كذلك، ينبغى أن تكون على علم بالتصوير الحسى الخيالى الذى سيؤول اليه الاحساس المدرك موضوع نشاطنا الخيالى ـ بعد اجراء النشاط الخيالى المذكور عليه ـ فالوعى للنشاط الخيالى وعيا للصورة الخيالية قبل تصويرها بالفعل ، فلا نعد بالتالى بحاجة لهذا النشاط ما دامت الصورة الخيالية المطلوب تصويرها قد جهزت تماما فى وعينا قبل أن نعمل على تصويرها ، فيمتنع علينا التخيل ونحن ما زلنا لم نتخيل بعد ... ودون ان ندرى من اين اتتنا هذه الصورة الحسية الخرافية الجاهزة .

وبينما أخفق اعتقادنا بمخزوننا الحسى فى تفسير تصوراتنا الخيالية ، فان مخيلتنا تستطيع تفسير مدركاتنا وذكرياتنا ، فمدركاتنا أفكارا كانت أم تصورات ذهنية فنحن انما نكونها بفعل قدرتنا عينها على تكوين أفكارنا الواقعية وتصويراتنا الخيالية، فتصويراتنا الخيالية وان اختلفت فى جهتها عن المدركات الواقعية ـ الا أن لها طابع المدركات العقلية ، والقدرة التى ننسج بها أفكارنا وتصويراتنا الخيالية هى بعينها القدرة التى ننسج بها فكرنا وتصويرنا الواقعى خصوصا وان مدركاتنا سواء ودون جهة فى ذاتها من حيث هى هى مدركات .

وذكرياتنا ليس لها طابع زمنى من حيث هى مدركات ، فالطابع الزمنى ندركه لها انما ندركه من خلال احساسنا الخارجى لوجودنا فى لحظة زمنية ... من خلال احساسنا الخارجى للزمن ، ونحن فى غياب هذا الاحساس الزمنى الخارجى لانستطيع أن ندرك هذا الطابع الزمنى لمدركاتنا وخبراتنا الماضية ، اننا نحلم بخبراتنا الماضية ولكننا لا ندركها كذلك ـ كخبرات ماضية ـ خلال الحلم، نحن ندركها دون أن نكن على وعى لها كذكرى ماضية ، اعنى دون ان ندرك ـ خلال الحلم ـ اننا نتذكر ، فلو كان ادراكنا لخبراتنا الماضية يأخذ طابعا زمنيا فى عقولنا لكنا قد ادركناها كذلك حالما تتراءى لنا فى احلامنا ... لكنا على وعى من أننا نتذكر ، وهذا وهم .

ونحن ، ان كنا ندرك خبراتنا الماضية ذات طابع زمنى فى اليقظة دون أن ندركها كذلك فى الحلم فلان احساسنا للواقع الزمنى خلال الحلم يكون مفقودا ، ومن الوهم ان نستبدل فقدان احساسنا للواقع باحتفاظنا لفكرته أو تصوره الذهنى لنمارس نشاطنا العقلى من خلاله ، فندرك بالتالى الطابع الزمنى لمدركاتنا وخبراتنا الحسية الماضية .

فذكرياتنا تكونها فى حينها من العدم بعد ان لم تكن ، وتكويننا للذكرياتنا لا يأخذ طابعا واحدا بعينه باستمرار ، فتصويرنا للذكرى يأخذ

فى كل مرة فى عقولنا شكلا جديدا فذكرياتنا ـ وهذا امر لاشـــك فيه ـ لاتأتينا هى بعينها باستمرار وانما يختلف تصويرها فى كل حين تتراءى لنا فيه فى وعينا ، فذكرياتنا خيالات صرفه نكونها فى وعينا شأنهـا شأن غيرها من الظواهر او التكوينات العقلية ... ولا وجود لها سابق فى الذهن بحيث تأتينا هى بعينها باستمرار .

لكن،كيف تسنى لنا أن نذكر الاسماء ان لم يكن ثمة وجود لهامنقوش فى ذاكرتنا ؟ اقول ، اننا نذكرها لاننا تعلمنا ان نذكرها حالما تتوافر لنـا معانيها فى عقولنا ، نذكرها اعتمادا على العادة والتعلم اللفظى (اللغوى) ، فنحن تعلمنا ان نذكرها حالما تقع حواسنا على مسمياتها أو تتراءى لنا هذه المسميات فى وعينا صورا ذهنية ، فبحضور الفكرة أو التصور الذهنى يغدو الاسم لغوا صرفا أو رمزا ، فذكر الاسم اللغوى وظيفة يؤديها الفم واللسان والجهاز العصبى بحضور معناة أو تصوره الذهنى فى عقولنا ـ كما تعلمناه .

ونسيان الاسماء لايعود لاسباب عقلية كما زعم علماء النفس والفلاسفة التجريبيون ، وكما تبدى للفيلسوف الفرنسى برغسون لأن هذه الاسماء لا وجود لها منقوشة فى عقولنا ، فكثيرا ما نكون على وعى تام واضح لشىء من الاشياء عن طريق توافر معناة أو تصورة الذهنى فى وعينا ، لكن دون ان نذكر اسم هذا الشىء ، فالشرط العقلى هنا متوافر ، بينما الشرط اللغوى هو الممتنع ، فلو كان للاسم وجودا منقوشا فى وعينا لكان حضورة ضروريا بحضور فكرته أو تصورة الذهنى ، فالنسيان يعود فى تقديرى الى عدم وجود رابطة ضرورية بين الرمز اللغوى وبين الفكرة المدركة ، وهى علاقة اعتبارية اصطلحنا عليها لكى نشير بها لمعانى محددة ، لكن دون ان يكون لها تحديد داخل ذهننا .

افكارنا خيالات صرفه ...

وكما امتنع علينا تفسير تصويراتنا الخيالية اعتمادا الى الفـــكر التجريبى ، فقد امتنع علينا تفسيرها اعتمادا على الفكر العقلى ... ان قدرتنا على تكوين افكارنا هى بعينها القدرة على تكوين هـــذه الافكار فى جميع احوال تكوينها وباختلاف جهاتها ولو كنا ننسج مدركاتنا الواقعية بملكة عقلية خاصة بالادراك الواقعى ـ ملكة الفكر ـ غير تلك الملكة التى نكون بها تصويراتنا الخيالية ـ ملكة الخيال ـ لما امكننا استخدام هـــذه المدركات الواقعية فى تكوينات خيالية بواسطة ملكة اخرى غير تلك الملكة التى ادركت هذه التكوينات الواقعية بها ، اذ يتعذر علينا أن نستخدم

مدركات واقعية - تم ادراكها بواسطة ملكتنا على الادراك الواقعى - فى تكوينات خيالية بواسطة ملكة أخرى لا شأن لها بهذه المدركات وبتكوينها ، فان كانت ثمة مدركات محددة فى عقولنا فنحن لانستطيع تصويرها بغير ما تحددت فىعقولنا ، وما دامت هذه المدركات الواقعية هى بعينها التى نستخدمها بالفعل فى تفكيرنا الخيالى ، فان قدرتنا على التفكير الخيالى هى بعينها القدرة على التفكير الواقعى ..

ان ملكة الخيال هى بعينهـا ملكة الفكر ، وملكة تكوين الأفكار هى واحـدة بعينها فى جميع أحوال التكوين الفكرى العقلى ، ان فكرنا العقلى باسره خياليا صرفا ، ومخيلتنا هى جوهر عقلنا ، فهى تخلق الفكرة من العدم وترسم التصور الذهنى بعد ان لم يكن ... هى التى تفكر وتصور فى آنواحد أو تفكر دون تصوير أو تتصور دون تفكير .

خيالنا مطلق ...

قدرتنا على مزاولة نشاطتنا العقلية المختلفة بمخيلتنا ليست قابلة للاحاطة أو الحد ، فهذه القدرة ليست مخصصة لادراك هذا العـــالم فحسب ، وحجة ذلك ، اننا حين ندرك شيء من الاشياء فنحن لا نعلم بقدرتنا على ادراكه قبل أن ندركه بالفعل ، اننا ندرك موضوع ادراكنـا دون ان نكن على علم سابق بقدرتنا على ادراكه ، فالقدرة على الادراك لا يمكن ان تحاط ، وما دامت هى كذلك فهى قدرة مطلقة .

فنحن ندرك دون أن نعلم مســبقا بقدرتنا على الادراك ، ونحن اذ لا نعلم بقدرتنا على الادراك فلان الادراك ليس قدرة معلومة يمكن الاحاطة بها ، وعديه ، فهو قدرة مطلقة .

نحن ندرك هذا العالم ولكن عقولنا ليســت موجهة لادراكه هو فحسب ، فلو كانت موجهة لادراك هذا العالم ، لكان خروجنا لغيره من عوالم الكتب السماوية أمرا خرافيا ... لكان خروجنا وهميا ، ان ذهابنا لعوالم آخرى لايمكن ان يكون متكررا ، اعنى ، لايمكن ان نخرج لعـــالم شبيه بهذا العالم أو نسخة منه ، والا فليس ثمة مبرر للخروج ..

فنحن قادرون على ادراك هذا العالم وما خلاه من عوالم ممكنة حتى يكون خروجنا لهذه العوالم الممكنة ممكنا بدوره .

الارادة والعقل

خطأ فاحش ... ان نعتقد اننا نوجه نشاطنا العقلى بارادتنا ، او أن تكون الارادة ذات وجود حقيقى داخل العقل ، اذ لاوجود لارادة داخل عقلنا لتهيمن على نشـاطاته المختلفة ... فالارادة ليست عقلا آخر يقف خلف عقلنا الواعى ، وانما هى عين فكرنا الواعى .

فنحن لكى ندرك او نفكر ، فنحن لانقرر الادراك أو التفكير قبل ان نمارس ادراكنا ونشاطنا الفكرى ، ولو لم تكن كذلك ، لكان علينا فى كل مرة يطرأ فيها فى وعينا فكرة معينة أو تصورا ذهنيا ... أن يسبقه قرارا اراديا بحضوره أو عدم حضوره فى وعينا .. وهذا وهم .

فنحن لكى ندرك ونفكر او نتخيل فانما نمارس نشاطنا العقلى هذا بدون ارادة تقرره قبل أن نمارسه ... بدون ارادة للادراك أو الفكر او التخيل ، فنحن ندرك الشىء الخارجى دون أن نقرر ادراكة قبـل ادراكه بالفعل . فلو كان ادراكه مرهونا بارادة ادراكه لكانت مجرد النظرة الحسية له ــ بلا ارادة ــ مجرد نظرة بلهـاء لا تعنى شـيئا ، اعنى ، لاستغلق على ادراك شىء من الأشياء ما لم أقرر ادراكه ــ بارادتى ــ قبل أن أدركه بالفعل ... لكان باستطاعتى مثلا ان أنظر الى الأشياء الخارجية المحسوسة وأكون على وضع ارادى برفض ادراكها دون أن أدركها بالفعل ... انظر لهذه الاشـياء وأرفض أن ادركهـا بحيث يكون ادراكى لها مرهونا بتحول الارادة لادراكها ... وهذا وهم .

اننا لانستطيع أن نريد تصورا خياليا ــ نحن لا نعلم عنه شـيئا ــ ثم لنصوره فى اذهاننا كما لانعلمه ، اننا نصور خيالاتنا دون ان يكن لها تحديد سابق فى اذهاننا بحيث نستدعيها الى شعورنا متى أردنا ، فنحن لا نستطيع أن نقرر تصور خيالات معينة قبل تصورها بالفعل ، لأنه لاوجود لخيالاتنا جاهزة فى عقولنا مثل تلك المحسوسات الموجودة فى الخـارج بحيث نريدها أو لانريدها ... ومن الوهم ان نعتقد باننا نستطيع منع تصويرنا الخيالى من أن يكتمل فى وعينا لكوننا لانريده ، اذ لو لم نكن نريده لما كان تصويره اصلا ، واضيف ، بانه لو كانت ثمة ارادة فى عقولنا تهيمن على نشـاطنا العقلى بأسره لكان فى مقدورنا أن نوقف نشـاط ملكه من ملكاتنا العقلية المزعومة ... كأن نقرر عدم رغبتنا فى التذكر ، فيتوقف تذكرنا لخبراتنا المـاضية .. أو أن نمتنـع عن الادراك ــ كما أوضحت

ـ فلا ندرك شيئا ... أو ان نمتنع عن التصوير الخيالى فلا يعد لنا هذا التصوير ... وهذا وهم واضح .

ثم ... أليس الاعتقاد بوجود ارادة توجه نشــاطنا العقلى ، اعتقاد بوجود عقلا آخر خلف هذا العقل ؟ .

لا وجود لارادة تهيمن على نشاطنا العقلى .. لاوجود لارادة فينــا مطلقا .

العقل منبىء بذاته

اتجه علم النفس الحديث منـذ كتابات فرويد الى وقتنا الحاضر الى التأكيد بأن تصوراتنا الذهنية التى نراها خلال النوم ، وما تعارفنا على تسميتها بالاحلام ، هى تصويرات لخبراتنا الحسية الماضية المختزنة فى الذاكرة .. أو هى تصويرا لدوافع لا شعورية مكبوتة تحرك نشـــاطنا العقلى فى غياب وعينا لها ... فندرك هذا النشاط دون ان ندرك تلك الدوافع اللا شعورية ، وانا لست بحاجة لأن اكرر رفضى لمثل هـــذه الاوهام .

لانحلم بخبراتنا الماضية ...

ولقد اوضحت فيما سبق رفضى لفكرة وجود ذاكرة فى عقولنـــا تحتشد فيها خبراتنا الماضية ، وأن من المستحيل ان تتواجد مدركاتنا وخبراتنا الماضية على هيئة تجمعات محددة فى الذاكرة بحيث تنزلق الى شعورنا خلال النوم ، فتتراىء لنا احلاما ، وحتى بافتراض وجود هذا الوهم ، فاننا حين نحلم بخبراتنا الماضية ، فاننا لا ندركها كذلك خـلال الحلم ، فنحن ندركهـا وكأنها تصـورات لم تتراىء لنـا الا فى توها .. تصويرات تعبر شعورنا كوقائع غريبة لانعلمها الا حين عبورها ، فلو كنـا نحلم بخبراتنا الماضية لكنا نعلم ـ خلال الحلم ـ من اننا نحلم بهـــذه الخبرات ... وبذكرياتنا ، لكنا على وعى من اننا نتذكر وهذا وهم .

لاوجود لوظائف مجهولة ...

وكما لم تكن احلامنا تصويرات لخبرة ماضية ، فهى لاتتم بوظائف عقلية مجهولة . لاتتم بوظائف لا شعورية ، اذ كيف نعزو تصويرنا الرمزى مثلا لوظيفة عقلية مجهولة لدينا دون أن نقوى على استعمال هذا التصوير الرمزى فى نشاطاتنا العقلية الشعورية ؟!

هل توجد لدينا وظائف عقلية لا شعورية الى جانب وظائفنا العقلية الشعورية ؟ أن كان لنا مثل هذه الوظائف اللا شعورية .. فان لنا ملكات عقلية اخرى الى جانب ملكاتنا العقلية المألوفة ، فيـــكون لنا ذات عاقلة مزدوجة العمل .. وهذا وهم .

العقل منبىء بذاته ...

لم أر مطلقا احلاما دون أن تتكرر فى اليوم التالى فى صورة سـلوك عملى أو حديث طارىء أو خيالات عفوية أو افكارا عابرة ... لقد لاحظت

مئات الأحلام التى كنت أراها فى النوم فكانت لا تخرج أبدا عن أن تاخذ شكلا من الأشكال السابقة المذكورة .. سلوكا عمليا كان أم حديثا أم تصويرا خياليا أم فكرا ، ولقد كنت أذكر الحلم الذى نسيته بمجرد تحقق الحلم على صورة من الصور السابقة .

ولقد كنت اتحقق من صحة هذه الظاهرة من زملائى ، فكيرا ماكنت الاحظ على البعض اذا ما سمع حديثا أو رأى شيئا ما او قام بعمل ما ان عاجله تصورا منسيا لحلم شاهده فى الليلة السابقة فيقول : « آه لقد رايت هذا فى الحلم » ... وكثيرا منهم كانوا يتخوفون من احلامهم ويتصورون انها تنبئهم بشرور واقعة بهم لا محالة ، كان يحلم أحدهم بأفعى تلتف على رقبته فينهض من نومه مذعورا ، فهو لايدرى ان حلمه ليس الا اشارة لحديث طارىء عن الزواحف سيجرى بينه وبين زملائه فى اليوم التالى .

فالعقل ينبىء عن وقائع النهار التالى وقد ينبىء عن وقائع فى المستقبل البعيد ، ومع ان مثل هذه الحالات الأخيرة قليلة الا أنها مؤكدة ، وتعليلى لهذه الظاهرة ، ان الأحداث الخارجية تقع فى ابعاد زمنية وروحنا العاقل لايعرف الزمن ، ونحن مثلما ندرك وقائع العالم الخارجى دون ان ننقل معطياتها الحسية فى وعينا ، فنحن ندرك هذه الوقائع والأحداث بعيدة عن فواصلها الزمنية ، فنستبق هذه الوقائع والأحداث قبل وقوعها ... نحدد الأحداث الواقعة ـ لا محالة ـ قبل وقوعها . فروحنا العاقل هو روحا منبئا .



المطبعة المصرية الحديثة
ومكتبتها
٨ شارع الشوارى القاهرة
ت ٤٧٨٥٦